أسطورة أوريست
والملاحم العربية



دكتور لويس عوض



الدكتور لويس عوض

أسطورة أوريست
والملاحم العربية

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
فرع مصر – ١٩٦٨

أسطورة أوريست
والملاحم العربية

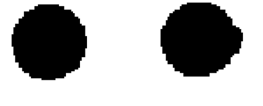
ربما كانت ثلاثيـــة ((الاوريستيا)) لاسخيلوس ، من اصعب الأعمال المسرحية فى تلخيصها ، وليس ذلك بسبب كثرة وقائعها او لتعقد عقدتها ، ((فالاوريستيا)) من حيث العقدة والوقائع من ابسط ما كتب للمسرح ســــواء بين اليونان أو بين المحدثين . وانما الصعوبة فى عرض ما يدور فى ((الاوريستيا)) ناشئة من عمق المبادىء والأفكار الفلسفية والأخلاقية التى بنيت عليها الثلاثية ومن ارتباط هذه المبادىء والأفكار بالقوانين الاخلاقية والوضعية والدينية السائدة فى معتقدات اليونان ، مما يحتاج عرضه وتحليله الى مجلد كامل من الحجم الكبير .

ولكن ((قصة)) ((الاوريستيا)) أو ((الميثوس)) اى الأسطورة كما كان أرسطو يحب أن يسميها ، غاية فى البساطة ، وهى باختصار قصة ((الابن المنتقم لأبيه)) ، وهى قصة لها جذور ومقابلات فى أساطير العالم القديم والوسيط والحديث وما بنى عليها من أعمال أدبية وفنية . وفى حدود معارفنا التاريخية يعد اقدم نموذج لها فى تاريخ الانسانية المعروف أسطورة الطفل الالهى حوريس الذى انجبته ايزيس ربة مصر بالروح من اوزيريس اله الخصب المزق ، واخفته فى مكان قصى ليكون بمامن من شر الاله ست قاتل أبيه ،

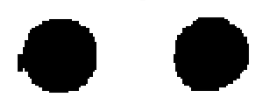
ثم شب وترعرع حتى بلغ مبلغ الفتوة ونازل الاله الشرير وأنزل به الدمار ، وبذلك ثار لأبيــه القتيل • وفى « الاوريسيتيا » نجـد أجاممنون عاهل أرجوس وغازى طروادة فى الحرب الضروس التى دامت عشر سنوات يعود الى أرجوس حاضرة ملكه فيجد زوجتــه الملكة كليتمنسترا قد اتخذت لنفسها فى غيبته عشيقا هو ايجيست او ايجيستوس ، وأبعدت ولدها أوريست وهو غلام صغير الى فوكيس ليخلو لها الجو فى القصر الملكى بأرجوس • وحين يعود الغازى اجاممنون الى قصره تكيد له كليتمنسترا وعشيقها ويذبحانه فى الحمام ويعتلى ايجيست المغتصب عرش أجاممنون بالاغتصاب ، وتعيش اليكترا بنت اجاممنون وكليتمنسترا فى قصر أبيها وكأنها الأمة الذليلة • ولكن الآلهة التى لا ترضى بهذه الجريمة النكراء ترتب نهاية أليمة للقاتلين • فيوحى الرب أبولو الى الفتى أوريست ، وهو ابن اجاممنون من كليتمنسترا ، أن يعود الى دياره ليثأر لأبيه القتيل • وحين يعود أوريست الى ارجوس يلتقى بأخته اليكترا عند قبر أبيهما ، وهناك يتعرف كل منهما على الآخــر ويدبران انتقامهما الرهيب • وينفذ أوريست الى القصر الملكى مستخفيا فى زى رحال ، ويذبح ايجيست ثم كليتمنسترا • ولكن الفتى الذى خضب يديه بدم أمه تحاصره زبانية الجحيم وتنهشه نهشا ، روحا وجسدا ، لأن قتل الأم جريمة نكراء لا ترضى بها الأرض ولا السماء • وتصيب أوريست لوثة من الجنون ويعيش فى عذاب مقيم حتى يأتيه لطف السماء • وتجرى محاكمته فى أثينا فتعجز عدالة الأرض عن تبرئته او ادانته ، وهنا تدخل الربة أثينا بنت عقل زيوس كبير الآلهة ، وتفتى ببراءته ، بموجب اللطف الالهى لا بموجب قانون العدالة • وبذلك تتحول الزبانية ، ربات الانتقام الى ملائكة رحمة او الى ربات صافحات •

● ●

فى مقدمة « حاملات القرابين » حاولت أن أبين فى دراسة مقارنة بين « الاوريستيا » و « هاملت » ما خيل الى أنه وشائج قوية تشير من ناحية الى تأثر شكسبير بما قرأه — فى ظنى — عن مأساة اوريست فى اسخيلوس وسوفوكليس واوربيديس ، وتوحى من ناحية أخرى بوحدة الموضوع والمنشأ البعيد فى أسطورة هاملت وأسطورة اوريست . أما هنا فاننى سأجتهد أن أبين ما هنالك من وشائج قوية بين هذه الأسطورة الهندية الأوروبية ، كما يحب البعض أن يسمى الأساطير الأوروبية قديمها ووسيطها ، أقصد أسطورة اوريست — هاملت ، أو أسطورة الفتى المنتقم لأبيه ، وبين أسطورة شهيرة من أساطيرنا العربية هى محور ملحمة « الزير سالم » ، وسأجتهد أيضا أن أبين ما هنالك من وشائج بين هذه الأساطير الهندية الأوروبية والعربية وبين الأسطورة المصرية القديمة ، أسطورة ايزيس وأوزيريس وابنهما حوريس المنتقم لأبيه ، بما يرجع أن الأسطورة المصرية القديمة هى الينبوع الأصلى الذى انبثقت منه كل هذه الأشكال المختلفة لهذه الأسطورة الأساسية فى مختلف العصور وفى مختلف البلاد .

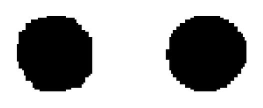


أما ملحمة « الزير سالم » ، أو الصيغة المتداولة منها فى الملحمة الشعبية المعروفة المتوارثة فى مصر عن العصور الوسطى بالانشاد الشفوى أولا ثم بالتدوين ثانيا ، فهى تدور حـــول موضوعين متشابهين : موضوع الأخ المنتقم لأخيه ، ويليه موضوع الابن المنتقم لأبيه ، وهما وجهان لموضوع واحد لن نعرف كيف تجاورا الا اذا درسنا فى « قصة الزير سالم » عملية « التراكم الملحمى » الذى سبق أن درسه علماء الميثولوجيا فى الملاحم الهومرية بالذات وفسروا به أمثال هذه الظواهر .



ولنبدأ بقصة الأخ المنتقم لأخيه ، وهى تحتل ثلاثة أرباع « ملحمة الزير سالم » ، فنسردها فى ايجاز :

هذه الملحمة تصور داخل اطارها العام قصة صراع تاريخى أو أسطورى رهيب بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، ثم بين عرب الشمال أنفسهم فيما بينهم ، وليس يبعد أن نسيج هـذا الصراع الملحمى قد تداخلت فيه الأسطورة مع التاريخ ، فالهيكل يبدو آنا أسطوريا قد حشى بأحداث التاريخ ، والهيكل يبدو آنا تاريخيا قد حشى بأحـداث الأساطير . هـذا الصراع فى اطاره الخارجى بدأ صراعا بين عرب الجنوب أو عرب اليمن الذين يعرفون ببنى قحطان ، وعرب الشمال أو بنى عدنان (بنى نزار بن معد بن عدنان وهم مضر وربيعة وانما روايا وأيادى) ويعرفون فى مجموعهم ببنى قيس أو القيسيين ، ومنزلهم الشام والحجاز ونجد والعراق وما فى كل هذه من قفار ، وهؤلاء القيسيون ينقسمون الى فرعين عظيمين هما بنو ربيعة ، ويعرفون أيضا ببنى تغلب ، وبنو مرة ، ويعرفون أيضا ببنى بكر ، فالتغلبيون اذن أبناء عم البكريين لأن الملك ربيعة رئيس التغلبيين هو أخو الأمير مرة رئيس البكريين . وقد كان الملك فى القيسيين أو عرب الشمال أو لربيعة الذى اتخذ من دمشق حاضرة لدولته ..



أما تاريخ هذه الرواية أو هذا التاريخ فهو فى الجاهلية البعيدة حين كانت العرب تتكلم لغات مختلفة فنحن نعلم من القصة أن ملك اليمن واسمه التبع حسان حين دخل دمشق كان بحاجة الى ترجمان ، كذلك نجد أن أحد فرسان هذه الملحمة هو الحارث بن عباد . وحارثة وعبادة الأول والثانى الخ .. فى التاريخ المضبوط ملوك حكموا مملكة النبط أو الأنباط Nabataeans فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد . فاذا أردنا مزيدا من الاشارات التاريخية التى تعد بمثابة أدلة داخلية ، أى من داخل النص ، على تاريخ انشاء ملحمة الزير سالم فهى كثيرة وغزيرة . فاستفحال اليمن الذى تبدأ به الملحمة ، وتؤرخه بحكم الملك حسان اليمانى ودولة التبابعة كان فى القرون القليلة السابقة للميلاد ، فقد بزغ نجم معين وقتبان وحضرموت على التعاقب ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد أو نحوه ، ثم بلغ عرب الجنوب قمة مجدهم أيام مجد يمنات (اليمن) وسبأ وذى ريدان وانطوى هذا المجد فى القرن الأول بعد الميلاد . فان أردت مزيدا من التحديد للفترة التى تتناولها ملحمة « الزير سالم » ، ففى الملحمة وصف لبيروت

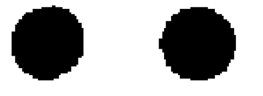
وما حولها على أنها كانت مملكة اسرائيل ، وان سكانها من اليهود، وهذا يعود بنا الى الفترة الواقعة بين القرن الثامن ق.م. والقرن الأول ق . م . ، وهى الفترة التى نشأت فيها مملكة يهوذا فى جنوب الشام وبلغت قمة مجدها ثم انهارت .

وقول شاعر الملحمة ان بيروت كانت تابعة لبلاد اليهود ، ان لم تكن حاضرتها ، يوحى بأن النص مقتبس أو مترجم بلا تصرف كبير عن نص أو نصوص متعددة ربما داخلتها حلقات اسرائيلية ، بدليل قيام مسرح بعض الحوادث فى فترة انتصر فيها بنو اسرائيل على الكنعانيين وأقاموا أركان صهيون فى فلسطين وما جاورها ، أو يوحى بأن النص مقتبس أو مترجم بلا تصرف كبير عن نص أو نصوص متعددة أنشئت ذاتها فى تلك الفترة السحيقة التى تعاصرت فيها دولة اليمن الحميرية ومملكة سبأ وذى ريدان مع دولة يهوذا فى القرون المتاخمة لميلاد المسيح .

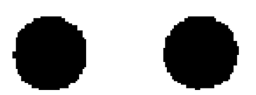
واذا أخذنا بنظرية التراكم الملحمى ، أى أن ملحمة « الزير سالم » ليست من انشاء رجل واحد ، ولا هى تمثل عملا فنيا واحد الصياغة ، وانما هى فى الأصل موال قصصى أساسى كان بمثابة النواة التى تجمعت من حوله مواويل قصصية أخرى حلقاتها متصلة بحلقة الموال الأساسى ، فليس يبعد أن نواة ملحمة « الزير سالم » الشفوية أولا والمدونة ثانيا ، ترجع الى عصور موغلة فى القدم ربما ترجع الى عهد فتح الهكسوس لمصر نحو ١٧٠٠ ق.م. أو لعهد طردهم منها نحو ١٥٠٠ ق.م. ففى الملحمة المتداولة اليوم حلقة تعالج على وجه اليقين وبلا تهذيب وبأكثر

التفاصيل المعروفة قصة ايزيس وأوزيريس المعروفة فى مصر القديمة والشهيرة فى العالم القديم كله ، وتصور الزير سالم فى صورة الاله الممزق فى موته وبعثه . وما دام هذا هو الأمر فليس غريبا أن نجد ملحمة « الزير سالم » قصة الابن المنتقم لأبيه وقصة الأخ الأصغر المنتقم لأخيه ، وهما صيغتان من موضوع واحد ، وقد تجاورت الصيغتان فى هذه الملحمة . واذا كان الأمر كذلك فنحن اذن بازاء نص ملحمى نواته الأسطورية على وجه القطع أقدم من الملاحم الهومرية ، أى أقدم من « الاليـاذة » و «الأوديسا» ، وهما ترجعان الى نحو ١٠٠٠ ق.م. ، بألفى عام على أقل تقدير ، والأرجح أن نواته الملحمية أقدم من الملاحم الهومرية بأكثر من خمسمائة عام . وقد تشكلت هـذه النواة الأسطورية أولا فى الزى الأنثروبومورفى المعروف فتجسـدت الآلهة بشرا وسارت فى الناس سيرة الأبطال ، واختلطت بمادة التاريخ واحداثه وأشخاصه بحيث امتزج فيها الفن أو الدين بالتاريخ والحياة ، فلم يعد من الميسور أن يقول قائل : هنـا يبدأ الفن أو الدين وهنا يبدأ التاريخ والحياة . ثم تجددت هذه الملحمة واتسعت حلقاتها وتعددت فلبست لكل عصر لباسه وكأنها من نبت بيئته ، فهى مصرية بين المصريين وهكسوسية بين الهكسوس ويونانية بين اليونان ونبطية بين الأنباط وعربية بين العرب : يتغير زيها الخارجى ويبقى جوهرها ثابتا ، ورغم كل هذا التغير والتطور فى السمات الخارجية تبقى أمامنا ترسبات العصور وكأنها الطبقات الجيولوجية المتراكمة ، فهى لا تحتاج

لأكثر من عالم منقب فى الميثولوجيا المقارنة للكشف عنهـــا ولتحديد عمرها وللتعرف على خاماتها .



فلننظر جيدا فى « التيمات » Themes أى الموضوعات أولا ، ولننظر جيـــدا فى الباترونيميات Patronymics أى الأنســـاب ثانيا ، ولننظر جيدا فى الموتيفات Motifs ثالثا ، ولننظر جيـــدا فى أدوات الشاعر من لغة وعروض ، ولننظر جيدا فى صـــورة البيئة وصورة الحياة وصورة التاريخ ، وهكذا . فاذا ما أجدنا النظر فى كل ذلك خرجنا بفكرة أقرب ما تكون الى الصواب عن مضمون هذه الملحمة وشكلها أو أشكالها وعمرها وكل ما يتعلق بها .



نحن فى ملحمة « الزير سالم » مع ملوك اليمن المعروفين بالتيابعة من ناحية ومع ملوك الشام المعروفين ببنى قيس من

ناحية أخرى . نحن فى عصر التبع أو الملك حسان اليمانى من ناحية وفى عصر الملك ربيعة وأخيه الأمير مرة ، وهما سـيدا بنى قيس فى الشام وعرب الشمال بعامة . ومن ملحمة « الزير سـالم » نعرف أن للملك حسان أختا جميلة تعددت أسماؤها فى الملحمة ، فاسمها آنا « سعاد » ، وآنا « تاج بخت » وآنا « هند » وآنا « البسوس » . هذه المرأة التى تسمى البسوس تستحق أن نقف أمام اسمها وشخصيتها قليلا ، لأنها من أخطر شخصيات هذه الملحمة ، وقد بلغ من أهميتها فى تاريخ الملاحم ان حروب الزير سالم كلها التى تقول الملحمة انها دامت أربعين سنة تعرف بحرب البسوس ، أى انها تحمل اسم هذه المرأة الغريبة العجيبة كما تحمل حرب طروادة اسم هيلانة طروادة .

هذه المرأة تقول الملحمة فى البداية انها كانت فتاة جميلة ثم لا يلبث النص أن يصـفها بأنها « عجـوز من عجائب الزمان وغرائب الأوان ذات مكر واحتيال وخداع ، ساحرة ماكرة ، وكان لها أربعة أسماء : سعاد وتاج بخت وهند والبسوس . وكان التبع عند ولادتها أسماها سعاد ، لأنها فى يوم ولادتها وردت اليه أسواق السبعة أقاليم ، وأمها سمتها تاج بخت ، وهند لأنها كانت تأكل كثيرا من جوز الهند . وكانت مع هذه الأوصاف القبيحة جميلة المنظر فصيحة الكلام شديدة البأس ».

هذه الفتاة البارعة الجمال البليغة الخطاب القوية الجنان ، حين بلغت سن العشرين كانت قد اكتملت لها أسباب الفروسية ، فكانت تركب الخيـل وكأنها مليكة الأمازونات وكانت تبارز

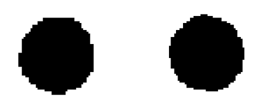
الأبطال والفرسان وتشترك فى المعارك ، فذاع صيتها فى الأمصار ، وأقبل عليها الأمراء الخطاب من كل مكان ، ولكنها كانت تقول : « انى لا أتزوج بانسان الا من يقهرنى فى الميدان » . وكانت تقهر خطابها الواحد بعد الآخر ، فخاف منها الخطاب وانصرفوا عنها ، حتى ظهر لها عظيم الشأن فى الفروسية اسمه «سعد اليمان» وكان ملك مكان اسمه «السرو»، وهو ابن عم الملك التبع حسان اليمانى ، وبالتالى فينبغى أن يكون ابن عمها أيضا ، ولكن النص لايقول ذلك . وقهرها هذا الملك العظيم فى المبارزة و « اقتلعها من سرجها فأقرت له بالعلية » ، أى اعترفت له بالسيادة عليها . وهكذا تزوج سعد اليمانى من سعاد أو تاج بخت أو هند أو البسوس ، وعاش معها عشر سنوات فى سعادة غامرة ، ثم فقد بصره ، فحكمت مكانه وأطاعتها العرب ، وظلت تحكم حتى بدأت أحداث ملحمة « الزير سالم » . هذه الملكة البسوس أخت الملك حسان اليمانى هى التى تنبأ حسان ساعة اغتياله وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بأنها ستثير الفتنة الضروس بين عرب الشمال فيقتل بنو قيس بعضهم بعضا :

يقول التبع الملك اليمانى لهيب النار تشعل فى فؤادى
أمير كليب يا فارس ربيعة ويا حامى النسا يوم الطراد
أريد اليوم أن أعلمك شيئا لتعرف حال أخبار العباد
فموسى كان فى الدنيا نبيا له التوراة أعطت للرشاد
وداود النبى قد جاء بعده يبشر بالزبور أهل الفساد

وعيسى مريم قد جاء أيضـا بانجيل الخلاص لكى ينادى
نبى لم يكن فى النـاس مثله لأن الله قد اختاره يفـادى
فكم ميت بكلمتـه أقامـه ومسقوم شفاه من الوسـاد
وعندى قد تبين فى الملاحم فانك قاتلى دون العبـاد
وبعـده شـاعره تنزل عليكم وتفتن بين قيس فى البـلاد
وأنت برمح جساس ستطعن وعبدى يذبحك بين الجمـاد
وتكتب من دمائك ع البلاطة لمن بعدك لتشتيت الأعـادى
ويأتى الزير أبو ليلى المهلهل فيصلى الحرب فى كل البلاد
ويقهـر كل جبـار عنيـد بضرب السيف فى يوم الجلاد
وتاخـد الجليـلة لك قرينة وتحظى بالمسرة والمـراد
ويظهر لك غلام بعـد موتك يسمى الجرو قهار الأعـادى
وهو يقتل الى جساس خـاله وأما الزير تقتـله الأعـادى
وسيف ذو يزن بعدك سيظهر وتصحبه السـعادة فى العباد
ويظهر له ولد يدعى بدمّر شـديد البأس مرفوع العماد
وبعده يظهـر المدعـو بعنتر يهين الضـد فى يوم الطـراد
وبعده يظهـر الهادى محمد يقيـم الدين ما بين العبـاد
وأصحابه معه عشرة كوامل كرام الناس سادات البـلاد
أبو بكرٌ وسعد مع سـعيد وطلحـة والزبير بن الجيـاد
وعثمان وعمـر مـع عـلى وعامر مع حسين أهل الرشاد..
وتختلف الصحابة على الحكومه ويحكمها حمـين بالبـوادى
وبعده بنو أمية سوف تحكم وأولهم معـاوية بن هـادى
ومن بعده بنو العباس تحكم سـنين كثيرة بين العبـاد

وبعدهم الخوارج سوف تظهر فواطمـــة الفواحش والعنـــاد
يقيمو الشر فى كل الأراضى ويملوا الأرض طرا بالفساد
وتظهر من بلاد الشرق عصبه فيقصد جيشها غرب البـــلاد
هلال وعامر من أهـــل قيس يريدوا حرب حمـــير مع اياد
أمـــيرهم حسن فخـــر البرايا وبعده دياب قهار الأعـــادى
وأبو زيد ابن عمه ليث أروع شديد البأس فى يوم الطراد
يطـــوفوا بالبـــلاد فيملكوها ويسبون العـــدا أهـــل العناد
ويمحوا العجم من كل البقاع بأرماح وأســـياف حـــداد
وقبرص والجـــزائر يملكوها وبدريس الخزاعى والأعـــادى
شبيب التبعى بالشام يقتـــل وتترك جثـــة فوق الجساد
وسركيس بن مازب سوف يقتل بسيف دياب قهار الأعـــادى
يمروا على الزناتى بأرض تونس يذيقوه المنيـــة فى الجيـــاد
وبعده يظهر الاشـــطان ظالم خبيث الأصل من قوم شداد
بنو أيوب تظهر بعـــد منـــه يقيموا الدين من بعد الفساد
ويظهـــر ابن عثمان المساعد بأرض الشرق يحكم فى العباد
ملوك الأرض تخشى من لقاهم لأن جيوشـــهم مثل الجـــراد
عـــداد ملوكهم عشرة وعشرة وتسعة بعـــدهم دون ازدياد
ويظهر تمرلنك من الأعاجـــم وجنكزخان من قـــوم كراد
ويظهـــر بعده ملك قـــوى يثير الحـــرب فى كل البـــلاد
طويل الجسم ذو همة عليـــة له اســـمين من ظاهـــر وباد
يقيم السيف فى الاسلام عمدا ويجرى الدم فى كل البوادى
ويظهر فارس يدعى قطيعـــه فعشر سنين يظلم فى العبـــاد

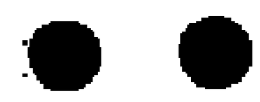
ويظهر بعده الدجال حقـــا فيتبعـــه الورى أهل الفساد
ويظهر ضده المهدى سريعـا ويســطع نوره فى كل وادى
فهو عيسى المسمى بابن مريم فيقتلــه ويملك فى العبــاد
وبعـــده دابة تظهــر سريعا فتفعل معجـزات فى البــلاد
ونار من عدن تظهــر وتطلع فتشكو الناس من هول النكاد
وبعده الشمس تظهر من مغيب وتزداد الخلائق فى الفســاد
ويأجـوج ومأجـوج جميعا تحيط رجالهــم كل البــلاد
فلا نهر الفــرات لهــم يروى ولا سيحون والدجلة المـداد
ويغشى الأرض موت ياكليبا وجوع وقتل فى كل العبــاد
ونيران تعــم الأرض طــرا على أعلى الجبال وكل وادى
وبعـــده يغتلق باب المراحــم وباب الشر يفتح باقتصـــاد
فلا يصعد ولا يأتى جــواب فذاك الوقت يحترق العبـاد
وبعده يظهــر ريح من جهنم وينفخ ريح من أقصى البــلاد
يموت الخلق منه ليس يبقى سوى الرحمن خلاق العباد..



هذه الرؤيا التى رآها الملك حسان ساعة موته تشير الى البسوس « الشاعرة » التى تقول النبوءة انهـــا تنزل بعربه الشمال وتثير الفتنة بين بنى قيس فتقيم بنى مرة على بنى ربيعة .

وهذه النبوءة نبوءة هامة لأنها تساعدنا على تحديد تاريخ نص الملحمة المدون الذى يتداوله الناس فى طبعة الصنادقية بالقاهرة . فهو حين يستعرض تاريخ العالم كما عرفه منشىء الملحمة ومنشدوها أو رواتها عصرا بعد عصر يحدد قيام حرب البسوس فى الفترة الواقعة بين ظهور « عيسى مريم » وظهور «الهادى محمد» كما يدل التعاقب الزمنى لسجل التاريخ . ويبدو فى الظاهر على الأقل من النص ان صاحبه أو أصحابه أو بعض أصحابه ، مؤلفين كانوا أو مجرد رواة منشدين ، قد عاشوا بعد امتلاك آل عثمان فى القرن السادس عشر للمشرق والمغرب مرورا بتيمورلنك (١٣٣٦ ـــ ١٤٠٥) وجنكيزخان (١١٥٥ ـــ ١٢٢٧) مرتبين ترتيبا عكسيا الخ ، وان كانت تواريخ ظهور التتر والمغول والأتراك العثمانيين قد اختلطت فى ذاكرة الراوى فأخر وقدم . والقفزة من ذكر العثمانيين الى ذكر علامات قيام الساعة كظهور المسيح الدجال الخ ، تدل على أن النص المدون الذى تتداوله حاليا دون أو فيه نصوص واضافات دونت فى القرن الثامن عشر (لأنه يعدد من ملوك العثمانيين تسعة وعشرين ملكا) . أماالاشارة الى ظهور ذلك الملك القوى طويل الجسم ذى الهمة العالية ، الذى يقال ان له اسمين أحدهما ظاهر والآخر خاف ، فهى فى ظنى اشارة الى الحاكم بأمر الله (٩٨٥ ـــ ١٠٢١) ، الذى جرت فيه الرواية يوم خرج وقتل واختفيت جثته أنه سيعود فى آخر الزمان قبل ظهور المهدى . وواضح أن مؤلف النص أو مؤلفيه كانت عندهم بعض المعرفة التاريخية والجغرافية المختلطة فى

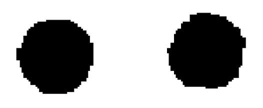
ذهن المؤلف أو فى ذهن الراوى . ولكن اذا كانت الأدلة تشير الى أن هذا النص المتداول فى طبعة الصنادقية الشعبية فيه ما يؤكد انه من انشاء العصر العثمانى ، فهناك من الأدلة أيضا ما يؤكد أن النص المتداول يحتوى على نواة شفوية وربما نواة مدونة موغلة فى القدم . وليس هناك ما يمنع أن تكون « رؤيا » الملك حسان ساعة موته أقصر مدى مما هى فى النص المتداول ، وان استعراضها لموكب التاريخ كان يتسع عصرا بعد عصر ، فيضيف اليه رواة كل عصر شيئا من عندهم بما يجعل تعاقب الأحداث فى الرؤيا متمشيا مع أحداث التاريخ خطوة بخطوة ، وما دمنا نتجول فى « الزير ســالم » فى عصر الجاهلية بلا تحفظ فليس هناك ما يمنع أن يكون النص الأصلى سابقا فى انشائه على العصر الاسلامى ـــ أى فى الجاهلية البعيدة ، بل وليس هناك ما يمنع أن يكون النص الأصلى قد أنشىء فى لغة غير اللغة العربية ثم ترجم الى هذه اللغة .



والذى أنحو الى افتراضه أن أحداث هذه الملحمة من حيث هى ملحمة وليس من حيث هى أسطورة قداتخذت خلفية أساسية لها فترة موغلة فى القدم هى فترات الصراع بين عرب الشـــمال

ومملكة سبأ فى جنوب الجزيرة (معين Mymmae حول القرن التاسع ق.م. ، ثم قتبان Kataban التى خلفت معينا نحو ٧٠٠ ق.م. ثم اوسان Ousan التى ثارت على قتبان نحو ٦٨٥ ق.م. ولكنها تحطمت ، ففى نقوش الملك سارجون Sargon الأشورى نحو ٧١٥ ق.م. والملك سينخريب Sennachareb الأشورى اشارات الى ملوك جنوب الجزيرة العربية بوصفهم ملوك سبأ) . فاذا نحن ذكرنا أن الزير سالم بعد قتله قد انتهى بصندوقه الطافى على الأمواج الى بيروت ، بدلا من ببلوس أو جبيلة كما فى رواية بلوتارك عن صندوق أوزيريس حيث كان يحكم الملك اليهودى حكمون ، لم نجد مناصا من افتراض ان الفترة التى يشير اليها النص هى الفترة التى حكم فيها بنو اسرائيل بلاد الكنعانيين ، وهى لبنان ، وهذه الفترة تبدأ بعصر سليمان الحكيم الذى يظن أنه حكم بنى اسرائيل بين عام ٩٧٤ و ٩٣٧ ق.م. وفى هذه الحالة يكون من حقنا أن نرى فى اسم البسوس صيغة فاسدة من اسم بلقيس (بلسيس أو البسوس) فاذا لاحظنا أن أكثر المعارك فى ملحمة « الزير سالم » تدور فى « بير السباع » أى فى « بير سبع » كما نسميها نحن الآن أو « باثشيبا » Bathsheba أو بيتسبا Bethsabee كما فى اللغات الأخرى ، أى «بيت سبأ » ، وبير Per ذاتها معناها « بيت » ، واذا ذكرنا أن « باثشيبا » أو بير سبع أو بيت سبأ هذه فى التوراة (٢ صموئيل ١٢/٢٤) هى أم سليمان الحكيم ، بدأنا نشتبه بأن الملحمة تروى توسعات سبأ أمام دولة أوسان وعرب الجنوب مجسدين فى رمزهم

الملحمى وهو « الملك حسان » والملكة بلقيس أو البسوس فى عرب الشمال مجسدين فى ملوك ربيعة ومرة ، بل ان من يتأمل بعض الأسماء فى ملحمة « الزير سالم » مثل اسم « ســعد اليمانى » الملك الذى قهر البسوس فى الفروسية وتزوجها و « حكمون » أبو « استير » ملك اليهود الحاكم فى بيروت ، والملك « ريان » ملك مصر ، و « سلام المهيا » وهو من أمراء تغلب ، يجد أنها أسماء آلهة من تلك الآلهة الكثيرة التى كانت تعبد فى سبأ مثل « سعد » و « حكم » و « عتيرات » (عشيرات بالعبرية وهى عشتروت وعشترات وعشتار البابلية) و « طالب ريام » أو « تعلب ريام » اله همدان و « المقه » اله سبأ .



فلما ظهر الملك حسان وأخته البسوس فى دولة اليمن كان يحكم دولة الشام ملكها العجوز ربيعة سيد تغلب وأخوه الأمير مرة ، وسيد بكر ، وكان لربيعة أربعــة أولاد هم « كليب » و « سالم » الذى يسمى « سلم » أحيانا فى الملحمة ويلقب بالزير وكنيته المهلهل ، ثم عــدى الذى يسمى أحيانا عــدية ودريعان ومع هؤلاء بنت اسمها « أسماء » أو « اســمى » ولقبها ضباع . أما الأمير مرة ، سيد بكر ، فقد كان له أيضا أربعة

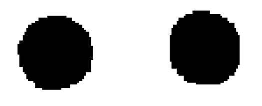
أولاد هم « جساس » و « همام » و « سلطان » و « جاويش » أو « جاويس » الذى يسمى أيضا فى الملحمة « شاليس » ، ومع هؤلاء بنت اسمها « الجليلة » وهى التى ألف الناس أن يسموها « جليلة بنت مرة » وكالعادة تزوج بعض أبناء العمومة ببناتها ، فتزوج كليب بن ربيعة من جليلة أو الجليلة بنت مرة ، وأنجب منها بنتا هى «اليمامة» وفتى هو «هجرس» البطل المنتقم لأبيه ، كما تزوج الأمير همام بن مرة من بنت عمه أسماء أو أسمى الملقبة بضباع وأنجب منها بطلين هما « لهيبون » و « شيبون » الذى يسمى فى الملحمة أيضا « شيبان » و « شومان » ، وكان لهما فى قصة الثارات باع طويل .

وحين تبدأ القصة نجد أنفسنا فى جو شبيه بجو « الياذة » هوميروس وخطف هيلانة الى طروادة . فحسان اليمانى ، حين كثر جنده وأعوانه وأبطاله وفرسانه طغى وتجبر وأراد أن ينفرد بحكم الدنيا ، وكان حسان « أول اليمانية » أى مؤسسى اليمن ، « كما كان ربيعة أول القيسية » ، أى مؤسس بنى قيس وهم عرب الشمال . وقد بلغ من فسوق الملك حسان أنه كان يتزوج كل ليلة بصبية من بنات الملوك والسادات، وكان يصل الليل بالنهار فى شرب الخمر ، وكان يحكم بالظلم ويرهب الاقيال والملوك . وكان له وزير عاقل عادل اسمه «نبهان» (ويكتب اسمه أحيانا بالخطأ نهبان) يحاول أن ينهاه عن الظلم دون جدوى وسأل الملك حسان وزيره نبهان ان كان له منافس فى ملك الأرض العريض ، فعرف منه أن بنى قيس فى الشمال ،

وعلى رأسهم الملك ربيعة ، كانوا أمنع أهل الأرض وأعرضهم ملكا ، فقرر حسان أن يغزو بلادهم ويذلهم ، أو كما يقول حسان « حتى أجعل زمام الدنيا فى قبضة ملك واحد » . وكان تحت امرته عشرة ملوك عظام فخرج بهم الى بلاد الشام ، واستولى على دمشق وسلمها له زيد بن علام الذى كان نائب الملك ربيعة فيها . ويفهم من النص أن هذا الغزو تم بحرا لأن الملك ربيعة الطاعن فى السن الذى كان غائبا عن حاضرة دولته فى وادى الأنعمين على مسافة يومين من المدينة ، جمع رجالات دولته وأنشد فيهم شعرا قال فيه :

جانا من البحـر ذا التبع يحاربنا

صعب المراس شديد البطش سلطان



وشاورهم فيما ينبغى عمله لمواجهة هذا الفاتح فأشاروا جميعا بالتسليم وعلى رأسهم أخوه الأمير مرة ، وساروا الى الملك حسان المتوج فى دمشق وقدموا اليه فروض الطاعة والولاء ، الا ملكهم الشيخ ، فهو قد كبر عليه الهوان فامتنع عن المثول بين يديه ، فغضب الملك حسان وأمر بشنقه ليكون عبرة لغيره .

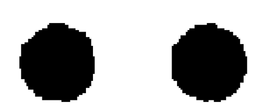
• •

وبعد أن استسلم الأمير مرة ورجاله صفح الملك حسان عن بنى قيس ووزع عليهم حكم الشام نيابة عنه فولى الأمير مرة على « حى بيروت وبعلبك والبقاع » وولى الأمير قيس على « بلاد السرو وعباده » ، وهى بلاد النبطيين أى الأردن كما تسمى اليوم، وولى الأمير عدنان على العراق . وهكذا شتت الملك حسان اليمانى أمراء الشام ومنع قوتهم من أن تجتمع فى صعيد واحد . وهكذا استتب له ملك الشـــام ثلاثين ســـنة تهـــابه الملوك و « القياصرة » ، ولا نعلم ان كان المقصـــود قياصرة روما أو قياصرة بيزنطة ، ولكن ذكر امرىء القيس فى مكان آخـــر لا الشاعر الجاهلى ، ولكن ملك العرب نائب قيصر عليهم فى القرن الرابع الميلادى يوحى بأننا نتجول فى زمن بيزنطة .

• •

وترامى الى الملك حسان أن للأمير مرة بنتا اسمها الجليلة هى بدر التمام ، فكتب الى أبيها بأن يزوجه اياها ، وكان ساعتها

يعد العدة ليزفها الى ابن عمها كليب بن ربيعة ، فخـاف مرة وأجابه بالقبول . فلما علم كليب بهذا الأمر أسقط فى يده . وأشار عليه صاحب له يدعى « العابد نعمان » ، وفى رواية « عمران » أن يلجأ الى الحيلة لاغتيال الملك حسان واستخلاص خطيبته من يده . واستقر الرأى أن يتظاهر كليب بالرضا ويقود قافلة جليلة السائرة الى الملك حسان بعد أن يتخفى فى زى مهرج الأميرة حتى ينفذ الى قصر الملك وينال منه غرضه . ولقد كانت قافلة من نوع غريب تلك التى حملت جهاز جليلة بنت مرة الى مختطفها الملك حسان . فقد أعد كليب مائة صندوق وجعل بكل صندوق طابقين ، طابق يحتوى كنوز جليلة ، وطابق اختفى فيه فارس من أشجع الكماة كامل السلاح . وقد تم كل ذلك بالاتفاق مع جليلة وأبيها .



وهكذا ركبت جليلة فى هودجهـا وركب معها رجـالات الدولة . أما كليب فقد تخفى فى زى مهرج الأميرة .

● ●

« وتقلد كليب بالسيف من تحت ثيابه ، ولبس فروا من جلود الثعالب والذئاب ، وأرخى له سوالف طوالا من أذناب الكبش والبغال ، وركب على قطعة من قصب ، وحمل دبوسا من خشب ، وكان يقود زمام ناقة الجليلة أمام فرسان القبيلة . فلما رآه الوزير نبهان قال لبعض الفرسان : من يكون هذا الانسان ؟ فانه زيه عجيب وحاله غريب . فقالوا : هـذا مهرج الجليـلة بنت مرة ، واسمه قشمر بن غرة » .

● ●

وحذر عراف الملك حسان هذا الملك من هذه القافلة المشئومة فأوفد رسله ليكشفوا أمرها ولكنهم لم يروا فى الصناديق الا جهاز جليلة وجازت عليهم الحيلة ، وأبلغوا الملك حسان بما رأوا فأمر الملك بضرب عنق العراف « وراحت روحه الى وادى الأحمر » . وكانت هناك عرافة أو ساحرة عجوز اسمها «حجلان»، قرأت فى الرمل حقيقة هذه القافلة ، ولكن بنى قيس رشـوها بالهدايا ، فتواطأت معهم ودخلت على الملك حسان تصور له بهاء

هذه الأميرة القادمة عليه ، وكأنها بهاء هيلانه أو تنشد فى وصف جليلة بنت مرة ما أنشده الشاعر هسيود فى وصف بهاء باندورا Pandora ، حـواء اليونان ، التى قالوا ان الآلهة خلقتها فى أحسن تكوين وزينتها بأجمل زينة وأوفدتها الى الانسان هدية من كل الآلهة وغواية ، ليكون بها سقوطه وشقاؤه :

تقول العجـــوز التى شاهــدت
مليحــة تزيح العنــا والصدود ...
أبوك بنو قيس أهـــل السـماح
وجابوا لك الخيــــل ثم النقــود
وجابوا الجليلة تخصــك حليــلة
بخــدين حمـــر وعينين ســود
وقامــة طــويلة كعـــود القنا
فوق الكتــاف ترخى الجعــــود
بشــعر طــويل وعــين كحيــل
بلا جــرميل تصـــيد الأســود
حواجب كما قوس ترمى الهــزوم
وذات حـــزام الذهب ع النهــود
ولهـــا شـفاف رقاق نظــاف
عقـــايل طــرايف تزيل النكــود
ولها وجــه بــدر بليـــلة قــدر
وجبــات حمــر كمثــل الورود

وجسـم رقيـق وريق رحيـق
وأسـنان لولو سـبت البرود
لهـا عنق مثـل عنق الغـزال
وطوق الذهب يوقـد وقـود
كتاف كالعـاج مثل الزجـاج
والنقش ممـواج فـوق الزنـود
وكفـين أطـرى من الياسـمين
من قد حـواها ينـال السـعود
وصـدر كلوح خلقـه الالـه
وقد زين الصـدر جـوز النهود
وأعطاف وأرداف مثـل العجـين
خلـق الالـه مهيمـن ودود
أما الحجـول تزيل العقـول
حب الطـرف يطفى الصـدود
أما القـلايد سلاسـل ذهـوب
من الرأس مكعوب مثـل البنـود
وملبوسها مليح حـرير مقصـب
مطيب بمسـك وزهـر وعـود
وان شافها راجـل عابد فقيـه
غـدا العقـل منـه شـارد شرود
قد زينوا بنى قيس لك عروسـا
تجـلى لأجلك كل هـم وكـود

للملك حقــــا قد أحضــــروا

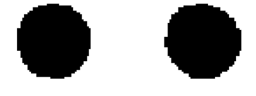
مليحــــة حــلالها يزيل النكــود

فارسل وراها وخلى المحال(الحمال)

واسمع كلامى وأجــلى الصــدود

وادخــل على بنت مـــرة وكون

لطيفــا بقطف ثمـــار النهـــود

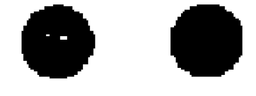


كل هذا الاغراء ألهب رغبة الملك حسان فى استقبال جليلة بنت مرة ، وهكذا فتحت أبواب القصر ودخلت جليلة وآلها على الملك فأجلسها الى جواره على العرش وألبسها التاج وأكرم قومها ، ودارت الكأس والطاس حتى سكر الملك حسان وغنت البنات ورقصت الراقصات فى مأدبة زفافه . وهنا طلبت جليلة بنت مرة مهرجها قشمر بن غرة ليسليها ويسلى الملك والبلاط . قالت : « لى نديم اسمه قشمر لا يوجد مثله بين البشر ، حلو الصفات سريع الحركات يضحك الأحجار بفعاله ويزيل الهموم بغرائب أعماله » . فأذن له الملك حسان فى الدخول وما ان وصل كليب فى زى المهرج قشمر بن غـره باب الايوان حتى رأى السلسلة المرصودة التى حذره منها صاحبه العابد نعمان أو عمران معلقة فوق الباب وهى من النحاس الأصفر ، وفيها من السحر

ما يهلك كل من ينوى بالتبع حسان شرا ، فأحجم قشمر بن غره عن الدخول حتى ترفع هذه السلسلة فيأمن هو وفرسانه المائة على حياتهم ، وتظاهر بالفزع من السلسلة ، « وأخذ يتكلم بكلام مجهول ويقول : ما هذه الحيلة التى أراها وأنا خايف من شرها »، وتشفعت له جليلة بنت مرة ، فأمر الملك حسان برفع السلسلة وعندئذ دخل كليب فى زى المهرج : « وأخذ كليب يمزح أمامه ويلعب بسيفه الخشب قدامه ، وهو فى تلك الثياب التى ذكرناها والصفة المضحكة التى وصفناها ، فكان تارة يبحلق عينيه ويرفص الأرض بيديه ورجليه ، وتارة يقول أين الفرسان الفحول وأين أبو عطبول ، وأحيانا يرقص ويضحك بلا سبب وهو راكب الفرس القصب ويسوقها بذلك الدبوس الخشب . فاندهش تبع من أعماله واستغرب من أحواله وأقواله » .

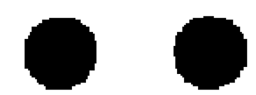


« ثم قال للجليلة : والله يا كاملة المعانى وشريكة عمرى وزمانى ، لقد أصبت فى منادمة هذا البهلول الذى يدهش بأفعاله العقول ، فانه مع كثرة هزله وخفة عقله جميل الصورة فصيح الخطاب سريع الكلام والجواب » .



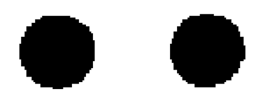
وحين عرف الملك حسان من قشمر بن غرة أن جليلة بنت مرة تجيد الغناء طلب اليها أن تغنى ولكنها أمسكت بدلال حتى يأمر الملك المهرج أن يغلق الباب مخافة أن يسمعها الخدم والحجاب، فأمره بذلك : « وأمر قشمر أن يقفل باب المخدع فقفله وعاد بالعجل وقد أيقن ببلوغ الأمل » . وغنت جليلة بنت مرة أغنية من أغاني الحب من تأملها وجد أن لها معنيين :

لقد قالت جليـلة بنت مره   شربت الخمر ما بين الامارة
شربنا الخمر فى كاسات جوهر   فزال العقل وصبحنا سكاره
بحضرة تبع الملك المسـمى   بحسـان اذا ما شـن غاره
وقد أمسيت فى قبضـة يديه   ومن حبه شعل قلبى بنـاره
ألا يا حارس البستان صنه   وان فرطت فى الطـير طاره



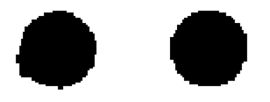
وسكر الملك حسان من هذا الغناء كما سكر من المدام . أما قشمر بن غره ، « فلما رآه زاد به الطرب أخذ يرقص أمامه

ويلعب بالسيف الخشب ، فقال له تبع : عيب عليك يا قشمر أن ترقص بهذا السيف أمام الملك الأكبر . فقال : اعطنى اذن حسامك وأنا ألعب به أمامك . فقالت له جليلة : بحياتى عليك أن تبلغه الأرب وتعطيه ما طلب فانك ترى منه العجب . فأمره أن يدخل الى قاعة السلاح فيأخذ السيف ويرجع بالعجل ، فأجاب كليب بامتثال ، وكانت الجليلة أرمت اليه أن يسرع فى العمل . وعند دخوله الى ذلك المخدع وجد سلاح تبع فلبس الدرع وتقلد بالسيف ووضع الخوذة على رأسه وخرج بالعجل كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل ، بعد أن فتح صناديق الأحمال وأخرج الفرسان والأبطال فبقوا فى ساحة الدار وقاموا له بالانتظار . وكان قد سل الحسام من غمده وهو يهزه فى يده ، ثم دخل على الملك وقد احمرت عيناه وتذكر أباه ، فصال وجال ولعب بالسيف كما تلعب الأبطال فى ساحة القتال ، وبعده تقدم وهجم عليه ، فعرفه حينئذ الملك تبع .. (وأيقن بالهلاك وطلب العفو ..) فقال : لابد من قتلك كما قتلت أبى وأكون قد أخذت ثارى .. » وهكذا أجهز كليب بن ربيعة على الملك حسان اليمانى.



ومن هذا التعاقب فى الأحداث الذى تبدأ به ملحمة « الزير سالم » قبلما تبدأ حلقاتها المحورية ، نجد أنفسنا

فيما يشبه برولوج عظيم اختلط فيه موضوعان مألوفان لنا فى تاريخ الأدب المقارن :

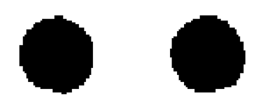


أولهما موضوع اختطاف الزوجة ثم استردادها من خاطفها ، ونموذجه الأكبر خطف هيلانة واستردادها بعد حصار طروادة وسقوطها . فحسان اليمانى حين أخذ جليلة بنت مرة قهرا من خطيبها كليب بن ربيعة يشبه فى كثير من الوجوه باريس أمير طروادة حين خطف هيلانة من زوجها منيلاس ، رغم ان اليونان أشركت هيلانة فى الغواية ، ورغم أن العرب برأت جليلة بنت مرة من تهمة الغواية ، فملحمة « الزير سالم » تصف جليلة بنت مرة بأنها « بنت جميلة فاضلة » ، وتجعلها أداة من أدوات الانتقام من المعتدى . بل ان الحيلة التى توسل بها كليب لاقتحام قصر الملك حسان ، وهى تخبئة المقاتلين فى صناديق تحملها خيول وجمال (فى موضع النص يقول « خيول » وفى موضع آخر يقول « جمال » بناء على نصيحة « العابد نعمان » الذى نلاحظ أن فى اسمه صفة من صفات الكهان) لتشبه الحيلة التى توسل بها اليونان لاقتحام طروادة ببناء الحصن الجسيم الذى اختفى فيه الأبطال بناء على مشورة أوليس أو أوديسيوس . وفى الحالتين نجد أن تدمير الغاصب واسترداد ما اغتصب هو موضوع

الأحداث . بل ان فى ملحمة « الزير سالم » عبارات توحى بأن حصار قصر الملك حسان كان حصارا بحريا كحصار طروادة اشتركت فيه السفن ، فالنص يقول عن حملة كليب وفرسانه المختبئين داخل الصناديق على ظهور الخيل أو الجمال : « فلما فرغ الرمال من كلامه وتبع يسمع نظامه نادى على العبيد فحضروا مائة عبد ، فقال لهم : روحوا الى العمارة وكل صندوق الذى تلقوا فيه رجال كسروه ، فانطلقت العبيد الى العمارة ، وهما أسعد وسعيد وبقية المائة عبد » ، واصطلاح العمارة فى العربية لا يكون فى العادة الا عند الكلام عن السفن والأساطيل ، وهو غير مألوف فى الكلام عن قوافل الخيل والجمال . وفى مكان آخر يقول النص : « ومازالوا يقطعون البرارى والأكام .. حتى اقتربوا من مدينة الشام فنزلوا هناك ونصبوا الخيام ورفعوا الرايات والأعلام ، وأرسلوا رجلا من أكابر العمد لكى يعلم تبع بوصولهم ، فارسى على الأثر ، وأعلم الملك بذلك الخبر » . والارساء عادة لا يكون الا للسفن ، وان كان يستعمل أحيانا مجازا لمجرد النزول . هذه القرائن توحى باحتمال وجود نص أصلى قديم يتم فيه الحصار بحرا ، ولكن اعادة نسج النص واعادة صياغته بحيث تكون المدينة المحاصرة هى دمشق ، قد أدى الى ظهور هذا النص المختلط الذى تجاورت فيه اصطلاحات الحصار البرى مع اصطلاحات الحصار البحرى ، دون أن يلقى الشاعر بالا الى ضرورة تنقية نصه تماما من رواسب النص الأصلى . يؤكد هذا أن غزوة الملك حسان ملك اليمن

لأرض الشام قد تمت كما يقول نص « الزير سالم » بحرا بألف سفينة جهزتها دولة اليمن .

يقول التبع اليمنى المسمى بحسان فما للقول زورا
ملكت الأرض غصبا واقتدارا وصرت على ملوك الأرض سورا
وطاعتنى الملوك والقبايل وفرسان المعامع والنمورا
لقد أخبرت عن بطل عنيد شديد البأس جبارا جسورا
وقالوا انه يدعى ربيعة أمير قد بنى مدنا ودورا
تولى الأرض فى طول وعرض فكم خرب وكم شيد قصورا
فقصدى اليوم أغزوه بجيشى وأترك أرضه قفرا وبورا
أيا نهبان اجمع لى العساكر فيأتوا فوق خيل كالنمورا
وجهز ألف مركب يا وزيرى وأوسقهم فى وسط البحورا
ثلاث شهور أسرع لا تطول يكون جميع ما قلته حضورا
أسير بهم الى تلك الأراضى وأملك للقلاع وللقصورا
ويبقى الحكم لى برا وبحرا ويصفو خاطرى بعد الكدورا



هذا المنولوج الواضح الصريح يثبت أن غزو حسان اليمانى للشام كان بألف سفينة ، وهذا يطابق بالضبط غزو أجاممنون

لطروادة التى ساق اليونان لحصارها ألف سفينة كما تقــول « الالياذة » والحــيرة التى يقفها الباحث أمام نص « الزير سالم » ناشئة من أننا نعرف أن اليمن ما كان يمكن أن تغزو الشام بحرا قبل حفر قناة السويس ، الا اذا التفت حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح وجبل طارق ، ولو أنه كان لليمن أسطول لانحصرت عملياته فى المحيط الهندى . وبالتالى فحديث الملحمة عن « ألف مركب » يجهزها الوزير نبهان أو نهبان لغزو الشام ضرب من المحــال ، ولا تفسير لها الا أن يكون النص مقتبسا من نص يونانى يروى قصة غزو اليونان طروادة بألف سفينة ، محرفا بما يناسب ضرورات التعريب . وهذا يضع الملك حسان فى وضع أجاممنون غازى طروادة ، وهو عكس الواقع الملحمى الذى يجعل الملك حسان مغتصب جليلة بنت مرة فى وضع بريام ملك طروادة ، وولده باريس خاطف هيلانة ، ويجعل كليب بن ربيعة وبنى قيس أو عرب الشمال بوجه عام فى موضع أجاممنون واليونان غزاة طروادة للثأر لشرفهم ولاسترداد هيلانة. وهذا معنى « العمارة » و « الارساء » ، تلك الكلمات البحرية التى تصور حصار كليب ورجاله المختفين فى بطون الصناديق على ظهور الخيل لقصر الملك المغتصب حسان فى دمشق الشام . وبهذا تكون البسوس أو بلقيس السبأية فى الوجدان العربى ، وهى أخت الملك حسان ، مساوية لكاساندرا أخت باريس خاطف هيــلانة .

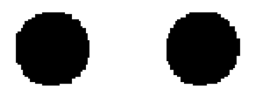
• •

أما الموضع الآخر الذى تعالجه الحلقة المدخلية أو الافتتاحية فى ملحمة « الزير سالم » فهو موضوع خطير حقا لأنه يزودنا ببعض التفاصيل القاطعة الدالة على ما نشتبه فيه من وجود علاقة عضوية بين أسطورة أوريست وأسطورة هاملت . فتخفى كليب زوج جليلة بنت مرة فى زى المهرج قشمر بن غرة فى حفل زفافها للملك المغتصب حسان ، وادعاؤه الجنون أو الانجذاب بغية التمكن من بلوغ الملك وقتله يذكرنا بما فعله هاملت مع الملك كلوديوس . واذا كان اسم غرة يذكرنا باسم يوريك Yorick مضحك الملك هاملت الأب ، فان تصرفات كليب وأوصافه مهرجا لا شـــبهة فى تطابقها مع تصرفات الأمير هاملت وتصرفاته : (١) فمشهد الملك حسان جالسا على عرشه والى جواره جليلة بنت مرة جالسة على عرشها ومن حولهما رجالات الدولة ثم كليب فى زى المهــرج المتفنن أمامهما يذكرنا بكلوديوس وجــيرترود وهما جالسان فى البلاط يراقبان فرقة الممثلين التى جاء بها الأمير هاملت ليفضح سر الملك القاتل . (٢) وادعاء كليب أو المهرج قشمر بن غرة الجنون لينال غرضه من الملك القاتل وانتقاله من الكآبة الشديدة الى الهزل الهازل واسترساله فى كلام غير مفهوم يذكرنا بما كان هاملت يفعله فى قصر الملك كلوديوس : « فكان

تراه يحلق عينيه ويرقص الأرض بيديه ورجليه وتارة يقــول أين الفرسان الفحول وأين أبو عطبول وأحيانا يرقص ويضحك بلا سبب الخ .. » وقد كان هذا بصفة عامة سلوك هاملت عندما ادعى الجنون . وهو ما جعل جيرترود تصفه بقولها :

Mad as the sea and wind, when both contend Which is the mightier :

(« هاملت » ٣/٤ »



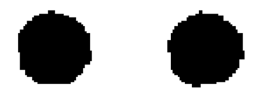
أما وصف حسان اليمانى لكليب بأنه « مع كثرة هزله وخفة عقله جميل الصورة فصيح الخطاب سريع الكلام والجواب » ووصف الراوى له فى انقضاضه على حسان بأنه « فصال وجال ولعب بالسيف كما تلعب الأبطال فى ساحة القتال » ، وفى مخاطبة حسان له بقوله : « يا سيد الشجعان وفارس الميدان » ، كل هذه الأوصاف تذكرنا بوصف أوفيليا لهاملت حين تقول فيه :

O, what a noble mind is here o'erthrown! The courtier's, soldier's, scholar's eye, tongue, The expectaney and rose of the fair state, The glass of fashion and the mould of form, The observ'd of all observers, quite, quite down!

(« هاملت » ٣/١)

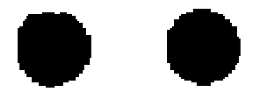
(٣) كذلك تذكرنا المأدبة التى أقامها حسان احتفالا بقدوم جليلة عليه وما جرى فيها من لعب كليب بالسيف الخشبى ومبارزاته

الوهمية ثم استبداله سيفه بسيف الملك ليتمكن من طعنه ، بالمأدبة التى أقامها الملك كلوديوس وعن يمينه الملكة جرترود احتفالا زائفا بعودة هاملت ومباراة المبارزة بالسيوف التى رتبها كلوديوس بين هاملت ولايرتيس ليتخلص من هاملت بالسيف المسموم . ثم استبدال السيوف وما كان من طعن هاملت لكلوديوس بالسيف المسموم . حتى مشهد جليلة بنت مرة وهى جالسة بجوار الملك حسان فى المأدبة تشرب معه فى « كاسات جوهر » يذكرنا بجرترود وهى جالسة فى مأدبة قصر السينور الى جوار كلوديوس تشرب الأنخاب المسمومة التى أريد بها قتل هاملت .



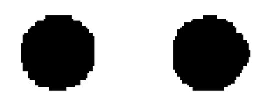
وهذا كله يجعل حسانا فى مقام كلوديوس وجليلة فى مقام جيرترود وكليب فى مقام هاملت . ولكنه يعقد الأمور بعض الشيء ، لأن جليلة بنت مرة ليست أم كليب كما كانت جيرترود أم هاملت ، بل خطيبته ثم زوجته . ورغم هذا فموضوع الابن الذى يثأر من قاتل أبيه ، وهو موضوع « هاملت » هو محور الحلقة الافتتاحية من ملحمة « الزير سالم » ، بل وفيه رواسب مشتركة من محاولة الأمير القاتل التسلل بالحيلة الى

« مخدع الملك » كما تقول الملحمـــة (قارن اقتحام أوريست لجناح ايجيست وكليتمنسترا فى «حاملات القرابين» لتدمير الجانيين وقارن اقتحام هاملت لمخدع الملكة جرترود) . قال كليب لحسان قبل أن يجهز عليه « لابد من قتلك كما قتلت أبى وأكون قد أخذت بثأرى » . وكذلك نجد أن موضوع انتقام الأمير من ملك يغتصب فراشا ليس له ، متكرر فى أسطورة هاملت وفى أسطورة كليب فى ملحمة « الزير سالم » ، وان تكن أسطورة كليب أقرب الى انتقام منيلاوس من باريس لخطفه هيلانة بكل ما لهـــذا الانتقام من خلفية حرب طروادة .



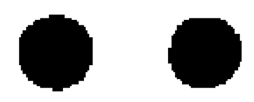
فيبدو اذن أن حلقة حسان اليمانى فى ملحمة « الزير سالم » تمثل ادماجا لأسطورتين نابعتين من أسطورة اختطاف هيــلانة وحرب طروادة : احداهما هى انتقام الزوج وآله من خاطف الزوجة (انتقام أجاممنون من باريس) والأخرى هى انتقام الابن من قاتل أبيه ومغتصب فراشه (انتقــام أوريست ـــ هاملت من ايجيست ـــ كلوديوس) . وقد اختلطت هاتان الحلقتان فى ذهن الرواة اما مصادفة بسبب تجاور المواويل وعملية التراكم الملحمى أو عمدا عند الاقتباس والتعريب بما يلائم البيئة العربية والتاريخ

العربى . وأيا كان الأمر فالحلقتان نابعتان من أسطورة أجاممنون العظيم . وأيا كان الأمر فان النص العربى يبرىء جليلة بنت مرة فى حدود هذه الحلقة ويعفيها من شنار هيلانة الفارة مع عشيقها كما يعفيها من شنار كليتمنسترا المشاركة فى اغتيال وليها .



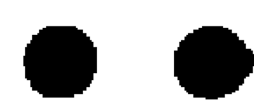
فهل من حقنا أن نفترض أن هناك « صيغة طروادية » لحرب طروادة اندثرت باندثارها للعالم الغربى الذى لم يعرف الا « الصيغة اليونانية » ووجهة نظر اليونان ، ولكنها عاشت فى خلد رواة طروادة بعد تدميرها وسارت فى الناس حيثما كان لبيزنطة نفوذ ثقافى وجوار سياسى ؟ ان تجهيز اليمن لألف سفينة لغزو الشام يضع اليمانيين فى موضع اليونان ويضع دمشق فى موضع طروادة ، وبحسب تسلسل الأحداث المعروفة كان ينبغى أن تكون الجليلة أميرة يمنية أو سبأية اختطفها كليب بن ربيعة أمير الشام كما اختطف باريس بن بريام أمير طروادة هيلانة اليونانية . وهذا الافتراض رغم قوته مشوب ، لأن البسوس كما سنرى فى بقية ملحمة « الزير سالم » ، وهى أخت الملك

حسان ، تلعب فى هذه الملحمة نفس الدور الذى لعبته كاسندرا أخت باريس أمير طروادة وخاطف هيلانة : فهى العرافة الساحرة التى تتنبأ بخراب طروادة لجريمة أخيها (خطف هيلانة) ثم تتنبأ بخراب بيت أتريوس اليونانى (بيت أجاممنون) الذى دمر بيت أبيها بريام الطروادي . وهذا يردنا حيث كنا من حيث معادلة اليمن أو سبأ بطروادة والشام باليونان . فحسان اليمانى خاطف جليلة بنت مرة يبدو أحيانا فى زى باريس خاطف هيلانة ويبدو أحيانا فى زى ايجيست مغتصب فراش أجاممنون وقاتله . وكليب يبدو أحيانا فى زى العاهل اليونانى منيلاوس ــ أجاممنون الذى خرج ليسترد زوجته المخطوفة ويثأر لشرفه ويبدو أحيانا فى زى أوريست المنتقم من قاتل أبيه وملوث فراش أسرته .



وبعد أن قتل كليب الملك حسان ، نودى به ملكا على الشام وتزوج من الجليلة بنت عمه ، واســـتعمل نبهان ، وزير الملك حسان ، وزيرا له . وتمنت جليلة أن يبنى لها قصرا فريدا فاستقدم لذلك « معمر » أو « معمرى » الريان ملك مصر الذى كان أعظم معمارى فى العالم وهو الذى سبق أن بنى قصر الملك حسان . فلما بلغ نبأ مقتل الملك حسان أهل صنعاء وعدن هاجت اليمن

وخرج الأمير عمران القصير ، ابن عم التبع حسان ، على رأس مائة ألف مقاتل لغزو الشام . وانبرى لنزال الأمير عمـــران كل أبطال بنى قيس الواحد بعد الآخر فهزمهم جميعا . انبرى له أولا ميمون بن الرشيد ، ثم الأمير مرة ، ثم الأمير همام بن مرة ثم الأمير جساس بن مرة فهزمهم جميعا فى حومة المبارزة . فخرج اليه الملك كليب نفسه وصرعه وشتت جيشه بعد أن تعقبه الى اليمن ، ولم يعد من اليمن الا بعد أن ركعت أمامه .

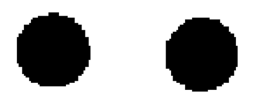


« ثم بعد ذلك بعشرة شهور تم بناء ذلك القصر المذكور فكان من عجائب الزمان والأوان لأنه كان فى غاية الاتقان ، ولا سيما البستان فانه كان كفردوس الجنان فيه من جميع الأشجار والفواكه والأثمار والمياه الغزيرة والزهور الكثيرة حتى فرح كليب فيه وأنعم على بانيه وفرشه بالفراش الفـــاخر الذى يبهر النواظر ويحير العقول . وجعل أبوابه وشبابيكه من ذهب ورصـــعها بأنواع الجوهر المنتخب » وأقامت جليلة فى هذا القصر الذى تفنن الرواة فى وصفه بمثل ما تفننوا فى وصف القصر الذى بناه ديدالوس للملك مينــوس فى كريت أو فى وصف قصر الملك سليمان فى

أورشليم ، ولقد تفننوا فى وصف جليلة بمثل ما تفنن الشعراء الشعبيون فى وصف بلقيس ملكة سبأ :

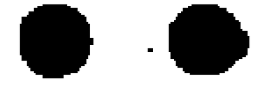
والصـــــدر بلاط حمـــــام

والفم خاتم سليمان الخ ..



وكانت جليلة قبل انتقالها الى القصر قد ولدت لكليب « سبع بنات » مثل البدور « الطالعات » وهنا تثير الأرقام حيرتنا ، لأن الأرقام عادة تعيننا على حساب الزمن . أما هذه الأرقام فتبلبلنا فاهتمام الراوى بأن يحدد لنا مرور عشرة شهور لاستكمال القصر بعد عودة كليب الى الشام من غزوة اليمن لاشك يتضمن اشارة الى معنى خاص يفهم من الشهور العشرة . وقول النص ان جليلة ولدت له سبع بنات قبل انتقالها الى القصر يفيد أنه قد مر على قتل كليب للتبع حسان والمناداة به ملكا وزواجه من جليلة سبع سنوات على الأقل . فالأرجح اذن أن « العشرة شهور » كانت فى النص الأصلى « عشر سـنوات » ، والأرجح اذن أن هـذه السنوات العشر هى السنوات التى قضاها كليب فى غزو اليمن . وما دمنا قد عادلنا خطف الملك حسان لجليـلة بخطف باريس لهيلانة ، وعادلنا دخول كليب وبنى قيس قلعة الملك حسان بحيلة

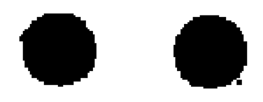
المقاتلين المختبئين فى الصناديق على ظهور الجمال أو الخيل على غرار حصان طروادة ، لم يكن هناك مفر من النظر الى هـذه السنوات العشر المحرفة الى شهور عشرة على أنها تقابل السنوات العشر التى قضاها اليونان فى حرب طروادة . وبهذا نقترب جدا من قصة أجاممنون وكليتمنسترا وتلك الحوادث الدامية التى جرت فى بلاط أرجوس ، فقد حدثت فى بلاط دمشق أشياء تكاد أن تكون مطابقة لما جرى فى بلاط أرجوس بعد عودة الغازى اجاممنون من حرب طروادة .



صحيح ان كليتمنسترا لم تلد لأجاممنون سبع بنات كما ولدت جلياة لكليب سبع بنات قبل عودته من حرب اليمن . فأساطير اليونان لا تذكر لكليتمنسترا الا بنتين هما ايفيجنيا واليكترا والا غلاما هو أوريست . ولكن فجأة نجد أن نص ملحمة « الزير سالم » يتحول تحولا غير مفهوم الى حد يوحى اما بوجود حلقة ضائعة فى هذه المرحلة من الرواية ، واما بفساد النص المقتبس بسبب تقادم العصور وقلة تمكن الرواة العرب من أسرار الأساطير القديمة . فنص « الزير سالم » يقول انه بعد أن عاد كليب من غزو اليمن منصورا ، سعى اليه عمـه الشيخ

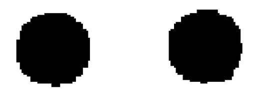
الأمير مرة ، وهو رئيس بنى بكر ، قائلا انه قرر الارتحال مع رجاله عن دمشق الشام وتركها جملة لكليب بن ربيعة رئيس بنى تغلب . أما السبب الذى أبداه الأمير مرة لهذا الانفصال فغير مفهوم . قال مرة : « يا ابن أخى ، كثرت عليك الرجال والأغنام لسبب كثرة المواشى والازدحام فمرادى الآن أن أرحل عنك بأنعامى ورجالى وباقى أموالى ، ولا شك أننا بهذا الرحيل والانتقال تتحسن بنا الأحوال ونحصل على راحة البال . فقال كليب : افعـل يا عمى ما تحب وانزل فى أى مكان تريد قرب الديار فان البلاد بلادنا ونحن ملوك الأقطار » . فالانفصال اذن قد تم بسبب ازدحام الشام بمن فيها ثم انه تم بالتراضى بين الطرفين وليس نتيجة لشقاق قام بين بنى بكر وبنى قيس ، وهو أمر غريب لأن بقية أحداث هذه الملحمة الدامية هى سجل دام للحرب الضروس التى قامت بين البكريين والتغلبيين . ولكن ليس من العسير أن نقرأ فى باطن النص أسباب شقاق خطير عبر عنه الرواة بلغة لبقة غاية فى الدبلوماسية . فباطن النص يقول : أنتم يا بنى ربيعة التغلبيين قد استأثرتم بخيرات البـلاد وحرمتمونا نحن بنى مرة البكريين من كل شىء ، وهذا زعيمكم كليب قد اغتصب ملك الدنيا واغتصب حقوق بنى عمـه . سنرحل عن بلاد أنتم فيها ولو جار الزمان على الفقير . فاغتصاب الملك ، أو الانفراد به اذن هو الذى أدى الى هـذا الانفصال التاريخى . نعم الاغتصاب دائما فى الأساطير هو بذرة الشقاق بين ذوى الأرحام : اغتصاب الزوجة كما فعـل ثايست بأخيه

اتريوس حين أغوى زوجته ، واغتصاب التاج كما فعل اتريوس بأخيه ثايست حين ذبح أطفاله انتقاما وطها لحمهم وقدمهم لأخيه فى الصحاف ثم نفاه مع ابنه الباقى من حمى أرجوس منفردا بعرش أرجوس المزدوج الذى جرت العادة أن يجلس عليه عاهلان (ثايست واتريوس ثم أجاممنون ومنيلاوس) . فمن حقنا اذن أن نشتبه فى أن بنى مرة لم يتركوا بلاد الشام طواعية بل نفوا منها نفيا كما حدث لثايست وبنيه ، وأشهرهم ايجيست الشقى الذى عاد من منفاه ليخرب بيت أجاممنون بن اتريوس ويثأر لأبيـــه .



وأيا كان الأمر فنص « الزير سالم » يقول ان الأمير الشيخ مرة رحل ببنيه ورجاله وماله الى واد يبعد « تسع ساعات » عن دار الملك كليب وابنته جليلة زوجة كليب الجالسة على عرش دمشق . ولما كان الأمير مرة قد طعن فى السن ، نراه قد تنحى عن سلطته لأحد أولاده الأربعة (همام وسلطان وجســاس وجليلة) ، ألا وهو جساس . ولعل من المهم أن نص الملحمة فى سرده لأسماء بنى مرة يرتبهم على هذا النحو ، بما يوحى بأن هماما كان الابن الأكبر وسلطانا كان الأوسط وجســاسا كان

الأصغر ، فاذا كان الأمر صحيحا فانتقال الملك الى الابن الأصغر يذكرنا بتلك الدورة الأبدية فى الأساطير القديمة ، ولا سيما أساطير اليونان ، حيث الابن الأصغر دائما هو المغتصب لعرش أبيه . أما بنو ربيعة فقد كانوا خمسة رتبهم النص فى مستهله أيضا على النحو التالى : كليب ثم سالم الملقب بالزير ثم عدى ثم درعيان ثم البنت ضباع .



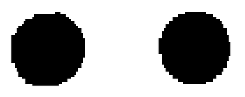
أما الزير سالم الملقب أيضا بالمهلهل ، وهو بطل الملحمة الحقيقى ، فقد وصفه الراوى بأنه « كان جميل الصورة كأنه البدر » الى جانب فروسيته الفذة ، وهذه الصفة ، صفة الجمال، صفة هامة ، سوف تتجلى أهميتها فيما بعد عند الكلام عن وشائجه الأسطورية . كذلك صوره النص على أنه « فصيح الكلام » . ولكن أهم من هذا وذاك أنه مصور فى صورة دون جوان فقد قضى شبابه « منعكفا على شرب المدام وسماع أصوات الأنغام ينشد الأشعار البديعة ويأتى بالمعانى النفيسة الرفيعة » ، فهو اذا أردنا استعمال لغة الأساطير نموذج لبطل من أبطال الخصب والاخصاب الذين صاغهم رواة الأساطير على غرار آلهة الخصب والاخصاب .

• •

وأما كيف بدأت ملاحم الزير سالم ، فقد حدث أن بنى مرة وعلى رأسهم جساس قد « ضربوا بختا من الرمل ليروا ما يحل بهم ويجرى عليهم ، وما يصيبهم ، فبان لهم أن الأمير جساس لابد أن يقتل كليبا ويظهر الزير ويأخذ تاره بدون ريب ، ويقتل منهم كل أمير وجبار بعد وقائع تستحق الاعتبار » أى بلغـة اليونان ، ان العراف أو كاهنة دلف تنبأ لهم بهذا المصير الحزين. وقد انزعج بنو مرة ، ولم يجدوا وسيلة يتقون بها هذا القدر المحتوم الا أن يلجأوا الى أختهم جليلة يستنصرونها على الزير سالم الذى قالت المقادير أنه سوف يبيد بنى مرة عن بكرة أبيهم . وقد كان الزير سالم يومئذ فتى يافعا لم يشتد عوده بعد . « وأجمعوا رأيهم على أن يقتلوا الزير قبل أن يكبر » . ويبدو أن الأمير سلطان كان صاحب هذه الفكرة وان كان النص لا يذكر ذلك صراحة ، لأنه من دون اخوته كان المنشد القائل :

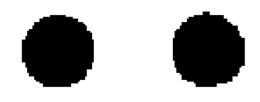
على ما قال سلطان بن مرة　　　مبيد الضـد فى يوم النزال
تبين عنـدنا جساس يقتـل　　　كليب بن ربيعـة ولا يبـالى
ويأتى الزير بعده يا أمـاره　　　يشتت جمعنـا بين الجبـال
ويمحى ذكرنا من كل أرض　　　ويفنينا ويسـبى العيـال

هلموا نقتله ونبيـد اسـمه
ونسلم من تصاريف الليـالى
فيلزم أن تروح الى الجليـله
وتعلمهـا على ما قد بدا لي
فهـذه اختنا ليست غريبـه
فتسـعفنا على نيـل الأمانى
جليـلة عـارفة فى كل فن
وتعرف فى الزيارج والرمـال
فقوموا كلنا نذهب اليهـا
ونقضي شـغلنا قبـل الوبال



وحين يلجأ الاخوة الى أختهم جليلة ، لا نجد أنها تقع فى حيرة بين ولائها لزوجها وولائها لأسرتها ، بل تنحاز على الفور لأسرتها ، وتضيف الى مقصدهم من عندها خطة جهنمية لتنقذ آلها من الزير سالم الذى جاء فى المقادير أنه سيبيد بنى مرة لأن سيدهم جساسا قتل أخاه كليبا . وهذه الخطة الجهنمية تقوم على تدمير الزير سالم بيد أخيه الأكبر كليب ، لأن قيام بنى مرة بقتل الزير سالم لن تكون له نتيجة الا هياج زوجها كليب واعلانه الحرب على أخواتها . وهكذا تطوعت جليلة بما لها من سلطان على زوجها كليب أن تدس عنده للزير سالم وتحرضه على قتله ، وبهذا يأمن أخوتها وبنو مرة من حد سيف الزير سالم . صحيح أن الملحمة لا تذكر أن أخوة جليلة أبلغوها بالشطر الأول من النبوءة ، وهو أن أخاها جساسا كتب عليه أن يقتل زوجها كليبا.

وغير واضح ان كان هذا الاغفال متعمدا لاخفاء نصف الحقيقة عن جليلة ، ان الراوى لم ينص عليه افتراضا منه أن أخوتها حين احتكموا اليها قد أطلعوها على الحقيقة كلها . ولكن النتيجة فى الحالين متشابهة ، مع فرق فى الدرجة ، وهو أن جليلة لم تكن على كل هذا الكمال والفضل اللذين صورهما الراوى فى بداية الملحمة . لأن كيد جليلة للتخلص من الزير سالم ، مهما كانت دوافعه نبيلة ، وهى انقاذ أسرتها من المصير المحتوم ، قد أظهرها فى صورة الملكة الضارية السفاحة التى لا تتورع أن توقع بالأبرياء من أجل تحقيق أغراضها .



وهنا تبدأ قصة شبيهة بقصة الأخوين المعروفة فى الأدب المصرى القديم ، قصة قريبة الشبه من قصة يوسف وزليخا ، أى يوسف وزوجة عزيز (فرعون) مصر ، وقريبة الشبه من قصة الجيل الأول من حكام أرجوس ، الأخوين اتريوس وثايستيس اللذين نعلم من أساطير اليونان أن أحدهما (ثايستيس) أغوى زوجة الآخر (اتريوس) ، فانتقم اتريوس من أخيه بأن ذبح أطفاله وطها لحمهم وقدمهم لأبيهم فى المأدبة الشهيرة ، وحين

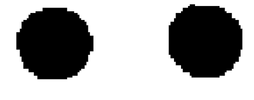
عرف ثايستيس حقيقة الأمر التاث عقله وأطلق لعنة مجلجلة هدمت بيت اتريوس والد أجاممنون .



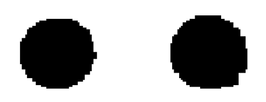
فعلت جليلة بنت مرة شيئا قريبا من ذلك . فهى أولا قد أنشدت فى اخوتها تقول :

مقـالات الجليـلة بنت مـره
تعـالوا اخـوتى اصـغوا لقولى
تريدوا قتـل أبو ليـلى المهلهـل
أخـوه كليب خلفـه مثل غـول
ومن خلفه عدير (هدير ؟) زيرقان
سـباع الغـاب فى اليوم المهـول
وسـت وأربعـون بنو أبيـه
يجـوكم راكبين على الخيـول
وتركب خلفكـم كل الفـوارس
فوارس تغلب مثـل الفحـول
ولكن سوف أرميـه بحيـله
تحـير كل أصـحاب العقـول

ويبقى كليب يقتـــله بيـــده
ويجعـــله طريح على الســـهول



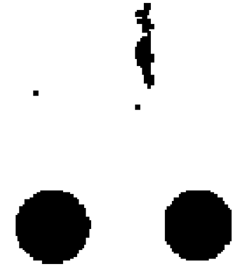
هذا ما قالته جليلة . أما ما فعلته فقد « شقت ما عليها من الثياب وأظهرت الغم والاكتئاب » وقالت لكليب ان أخاه قد راودها عن نفسها ، وانه هم بها ، واستصرخته أن يقتل أخاه الفاسق اتقاء للعار ، حتى لا تلوغ القبائل فى عرضه . باختصار مثلت جليلة مع الزير سالم تمثيلية زليخة مع يوسف جميل الصورة أو تمثيلية زوجة الأخ الأكبر مع الأخ الأصغر جميل الصورة فى « قصة الأخوين » . وربما كانت قصة اتريوس مع أخيه « ثايستيس » قد بنيت فى الأصل على نفس الموضوع ، أى أن امرأة اتريوس ، لكى تنكل بثايستيس ، زعمت أمام زوجها أن أخاه أراد اغواءها .



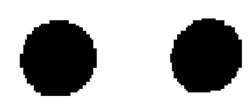
ومما ينبغى ملاحظته اهتمام الراوى فى ملحمة « الزير سالم » بذكر الأرقام والأعداد . فهو فى الكلام عن جساس واخوته من

بنى مرة يقول انهم « خرجوا من القبيلة قاصدين أختهم الجليلة، وكانوا ثلاثة وأربعين ولدا ذكرا » . وهو فى الكلام عن كليب واخوته من بنى ربيعة يقول على لسان الجليلة :

وست وأربعــون بنو أبيــه   يجوكم راكبين على الخيــول

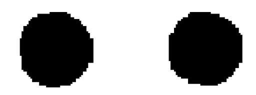


وهذه الأعداد الكبيرة لا تتناقض مع قول الراوى ان بنى ربيعة كانوا خمسة بينما بنو مرة كانوا أربعة ، فعبارة « بنى أبيه » تعنى أنهم كانوا اخوة لكليب من أبيه فقط ، أما الأشقاء فكانوا أربعة أو خمسة هم الذين ورد ذكرهم . ونفس الأمر بالنسبة الى بنى مرة من اخوة جساس ، وأقرب شىء نعرفه فى عالم الأساطير القديمة لهذا العدد الوفير من الاخوة هم أبناء ايجيبتوس الخمسون وبنات داناووس الخمسون ، وفى رواية أنهم أربعون .



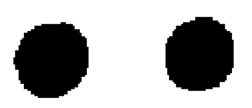
ولم تفلح هذه الحيلة لأن كل ما نجم عنها أن كليبا أهان أخاه الأصغر الزير سالم اهانة بالغة وجرده من رموز الشرف كارتداء

الحرير ونفاه الى الفيافى ليعيش بين الرعاة « وأرسله مع الرعيان ليرعى النوق والفصلان » (قارن طريقة النفى التقليدية عند اليونان ، بالنفى مع الرعاة كما فى حالة أوديب مثلا . وقارن قصة الأخوين التى نعلم منها أن الأخ الأكبر المجد كان فلاحا بينما الأخ الأصغر الجميل كان راعيا . وقارن قصة يوسف الجميل الصورة ، حيث زعم اخوته الكائدون له أن الذئب أكله وهو يرعى الغنم ، وقارن قصة قابيل وهابيل كما وردت فى التوراة ، ففيها أن قابيل كان فلاحا وهابيل كان راعيا) .



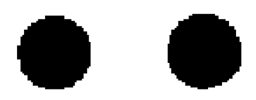
ولكن جليلة لم تيأس ، فجددت تحريضها لكليب أن يقتل أخاه الزير سالم ، قائلة ان هذا الفتى الجميل الماجن قد ساءت سمعته بين الناس ، لأن الرعاة يلوطون به ، ولا سبيل لمحو هذا العار الا بأن يقتل كليب أخاه الفاسق . (يبدو أن تهمة من هذا النوع ألقيت على اوزيريس فى مرحلة من مراحل أسطورته ، واللواط بين آلهة اليونان معروف ، فقد كان جانيميد Ganymid ساقى الآلهة غلام زيوس كبير الآلهة) . والغريب أن النص لا يحاول تبرئة الزير سالم من هذه التهمة ، بل يفترض صحتها : « فلما فرغت الجليلة من هذا الشعر ووقف كليب على حقيقة

الأمر ، التهب فؤاده واضطرب من شـــدة الغيظ والغضب ، وأخذته الحمية وعصفت فى رأسه نخوة الجاهلية ، وقد صمم النية على أن يقتل أخاه ويسقيه كأس المنية . فقالت الجليلة : لا تقتله بيدك يا أمير لأن كلام الناس كثير » أما اليونان فقد كانوا يقولون : لا تقتله بيدك يا أمير ، لأن قتل ذوى الأصلاب والأرحام يجر لعنة المقادير ويطلق عليك الايرنيات (الزبانية) من باطن الجحيم فتعيش فى عذاب مقيم . وكان رأيها أن يلقى الزير سالم الى وادى العباس وتفترسه السباع والنمـــور ، فخرج كليب بأخيه الصغير الى تلك المغـــارة زاعما أنه يطلب الصيد والقنص وهناك دهمه سبع من بطن الوادى غلبه على أمره ، ولم ينقذ حياة كليب الا شجاعة الزير سالم الذى شطر الأسد شطرين بخنجره وأخرج قلبه وأكله . وعندئذ صفا كليب لأخيه البطل وقال فى سره « ان عاش هذا الغلام يكون من عجائب الأيام » ثم عاد بأخيه الى قصره .



واغتمت جليلة لنجاة الزير سالم ، وهـــددت بأن تلجأ الى قومها ليقتلوه ما دام كليب قد خلا من نخوة الرجال « لأنى لا أئتمنه على نفسى اذا بقيت عندك » . أما كليب فهو حائر

ولا يفتأ يردد فى كل مرة : « فكيف أسمح بقتل أخى وهو من لحمى ودمى » . ولكن جليلة تغلبت على كليب للمرة الثالثة . وكان الرأى هذه المرة أن يقود كليب الزير سـالم الى « بير صندل السباع » ، وهناك يدليه بحبل فى البئر بحجة التماس الماء، ثم يقطع الحبل فيغرق الزير سالم فى البئر . « وكان كليب يحب الجليلة محبة عظيمة ولا كان يخالفها فى شىء فلما ألحت عليه وافقها على ذلك اكراما لخاطرها » . وفى بير صندل السباع نفذ كليب الخطة ودلى الزير سالم فى البئر ليملأ الدلاء حتى تشرب الخيل . ولكن الخيل تكاثرت حول البئر وأوشكت أن تقتل كليبا ، ولما أحس الزير سالم بذلك « فصرخ عليها صوتا مثل الرعد العاصف حتى ارتجت منه الوديان واضـطربت قلوب الفرسان فجفلت الخيل وتراجعت » ، وهكذا نجا كليب من الموت المحق تحت حوافرها . وندم على ما كان قد بيت لأخيه وأخرجه من البئر .



ولما عاد كليب الى قصره مع أخيه الزير سالم حيا ، غضبت جليلة غضبا شديدا ، ولكن كليبا عنفها وأخذ يغلظ لها الكلام لالحاحها فى طلب قتل أخيه ، فتراجعت جليلة وأخذت تداور

وتنافق حتى صفا لها قلبه . ثم انها تمارضت وزعمت أنه لا دواء لها الا كأسان من حليب السباع . هـــذا على الأقل ما جاء فى ص ٣١ من طبعة « المكتبة الملكية » لصاحبها عبد الفتـــاح عبد الحميد بشارع الصنادقية بجوار الأزهر الشريف بمصر ، وهى طبعة يدل اسمها على انها صدرت أيام الملكية ، وطبعت على المطبعة اليوسفية بشارع محمد على . أما فى الطبعة المتأخرة ، طبعة مكتبة « الجمهورية العربية » لصـــاحبها عبد الفتـــاح عبد الحميد مراد بشارع الصنادقية بالأزهر بمصر المطبوعة فى دار الطباعة اليوسفية ش دار الكتب (ويبدو أن الناشر واحد والمكتبة واحدة والمطبعة واحدة والعنوان واحد مع اختلاف فى الاسماء استجد منذ عهد الثورة) ، فالنص يورد « مقالة » على لسان جليلة بنت مرة تبرر طلبها للبن السباع على أساس انها لم تنجب من كليب الا بنات ، وان لبن اللبؤة سيجعلها تحمل منه غلاما .

منـالات الجليـــلة بنت مره | كليب اسمع لى يا أبا اليماما
وأنت اليوم ملك فى البوادى | يا ليت الحق بك يا أمير داما
وتحكم يا ملك شرقا وغربا | من أرض الروم للكعبة دواما
وكم أبراج من ذهب وفضـــة | جواهر تشرق جنـــاح الظلاما
ولا لك طفل تحيى فيه ذكرك | سوى سبع بنات مثل الحماما
أتانى منك سبع بنات أتانى | ولا جانى منك ذكـــر غـــلاما
وقالت دايتى لى يا جليـــلة | معى لك علم يرى الســـقاما

لبان لبوى بصوفة احمليهـا   تروحى فى ذكر حامل قواما
فنـادى الزير وأخبره سريعا   أدام الله عمـرك بالسـلاما

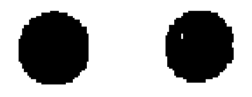
● ●

هذه « المقالة » التى سقطت من بعض الطبعات الشـعبية ، لها بعض الأهمية لأنها تزودنا ببعض التفاصيل عن حياة كليب مثل كونه أبا لسبع بنات ، وبلا أعقاب ذكور ، وبذلك يكون مولد ابنه هجرس فيما بعد ، وهو آخر العنقود ، ذا معنى خاص .

● ●

وهكذا خرج الزير سالم ارضاء لأخيه ليأتى بحليب اللبؤة ، وقد رسخ فى روعه أن جليلة ترسله الى حتفه ، لأن أخاه كليبا أمره بأن يخرج فى هذه المغامرة مسلحا بسكينة وعصـاة فقط (قارن هراوة هرقل) ، باعتبار ان من كان فى مثل شجاعته ليس بحاجة الى سيف يقاتل به الوحوش . وحين بلغ « غابة كبيرة كثيرة الأشجار والصخور » ، خرج عليه أسد هائل فصرعه بقوة

زنده ، وأجهز عليه بعصاه . ثم خرجت عليه لبؤة وراءها سبعة أشبال وكانت فى هياج شديد لموت أسدها ، فتظاهر الزير سالم بالخــوف منها وهرب فتبعته ، وتسلق شجرة ، فرأى أشبالها يرضعون من أثدائها تحت الشجرة ، وهى فى انتظاره لتلتهمه ، روثب من الشجرة واعتلى ظهرها حتى لا تتمكن منه ، وأحكم القبض عليها ثم نحرها وملأ الحق الذى يحمله من لبنها ، بعد أن ربط أشبالها بالحبال ثم ساقها أمامه كالكلاب ، وعاد بها الى الحى ، وهناك استقبل استقبال الأبطال .



وغضبت جليلة لانتصار الزير سالم ، واستبد بها الغضب فهددت بشنق نفسها اذا لم يقتل كليب أخاه الذى زعمت أنه حاول أن يعتدى عليها . وخضع كليب لها هذه المرة أيضا واستمع لنصحها بأن يتخلص من الزير سالم بادعاء المرض وارسال أخيه الى « بير السباع » حيث يأتيه بشربة من تلك البئر يكون بها شفاؤه ، أو كما قالت جليلة :

فأرسله غدا الى بير صـــندل   وان أرسلته لهنــاك يقتــل

● ●

ويبدو أن « بير صندل » هذه هى «بير السباع » التى أشار اليها النص فى هذه الحلقة ، كما يبدو أن هـــذه المغامرة هى مجرد تكرار لمغامرة الزير سالم فى « بير صندل السباع » وخرج الزير سالم الى بير السباع لا يحمل سلاحا الا هراوته ، وكان حماره يحمل قربتين ليعود فيهما بالماء المطلوب ، فلما نزل البئر ليملأ القربتين نهش أسد حماره وقتله ، فاغتاظ الزير سالم وقرر أن يحمل الأسد القربتين وكأنه حمار ، وبهراوته استطاع أن يغلبه ويروضه ، « وساقه مثل الكلاب » الى الحى وقد اعتلى ظهـــره .

● ●

وحين عاد الزير سالم منصـــورا استقبله كليب اســـتقبال الأبطال ، أو كما يقول نص الملحمة « فأمر كليب الخدام أن يدخلوا الزير الى الحمام ، فدخل واغتسل ، ولبس حـــلة من

أرجوان » وهو يشتمل على رموز تذكرنا بالعرس الدامى فى تاريخ القصص ، ولا سيما اذا عرفنا أن كليبا بعد هذا عين الزير سالم وليا للعهد « لأنك منذ اليـوم ساعدى وزندى وأنت الحاكم من بعدى » وعرض على الزير سالم أن يختار أية مدينة يؤمره عليها أو امرأة جميلة يزوجه اياها . أما الزير سالم ، فقد بلغ من اشمئزازه من كيد جليلة ومؤامراتها المتصلة للقضاء عليه ، فقد كان على بينة من أمرها ومحرجا بين ولائه لأخيه وبغضه لها ، انه زهد فى العالم وطلب الاعتكاف واعتزال الناس ، فانحصرت أمنيته على أخيه فى أن يقيم له « صيوانا » فخما عند بير السباع يعتزل الناس فيه « فان الانعزال أفضـل للرجال الأحرار » ، و « لأنى أنفرد عن باقى الناس وأكون وحدى خصوصا عن كيد النساء » . ان كل ما يطلبه الزير سالم هو أن يترك لشأنه فى هذا الصيوان بين طعامه الفاخر وشرابه الفاخر ولياليه الملاح بين الكأس والشعر وعذب الأغانى وخدمه الساهرين على خدمته ثم عدة الصيد يخرج بها للقاء السباع فى البرية حتى يفنيها . فأجابه كليب الى طلبه . وفى عزلته هذه أقام الزير سالم حتى سئم العـزلة فاستضاف ابن عمه همام بن مرة ، وكان يخلص له الود بصفة خاصة ، وأقام همام مع الزير سالم ثلاثة أعـوام بين الكأس والطاس يفنيان الليـل والنهار فى الطرب وانشـاد الشـعر ....

• •

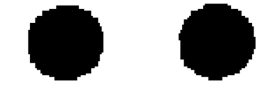
كل هذه الأحداث تستغرق نحو ثلث الملحمة (فى طبعة المكتبة الملكية ٣٦ صفحة من ١٢٨ صفحة وفى طبعة الجمهورية العربية ٤٥ صفحة من ١٥١ صفحة) . وبنهاية هذه الأحداث ، وهى اعتكاف الزير سالم فى صيوانه ، تبدأ الملحمة الرئيسية فى سيرة الزير سالم ، وهى تحمل عنوان « فى حرب البسوس بين بكر وتغلب » . هذه الرواية تعود بنا القهقرى بنوع من «الفلاشباك» الى حيث بدأنا ، حين اغتال كليب بن ربيعة سيد بنى قيس (تغلب وبكر) الملك حسان اليمانى ، الشهير بالتبع حسان ، بعد أن تسلل الى قصره بحيلة شبيهة بحيلة اليونان لدخول طروادة ، واسترد خطيبته جليلة بنت مرة التى كان التبع حسان قد أراد أن يستأثر بها لنفسه كما استرد منيلاوس زوجته هيلانة بعد فتح طروادة ، وكان باريس بن بريام ملك طروادة قد اختطفها.

• •

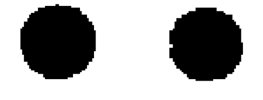
تقول الرواية ، بعد الفراغ من تفصيل مكائد جليلة للزير سالم ، ان التبع حسان بعد أن قتله كليب بن ربيعة ، خرجت

أخته العجيبة ذات الأسماء الأربعة (سعاد وتاج بخت وهند والبسوس) تكيد لقاتل أخيها حسان وتكيد لقومه حتى أفنتهم فى تلك الحرب الضروس التى اشتهرت بحرب البسوس . ومن المهم أن نذكر أن الملك حسان قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ألقى على قاتله كليب بلعنة أو بنبوءة نزلت منزل اللعنة عليه وآله ، فقد تنبأ حسان لكليب بأنه بعد قتله ستظهر « شاعرة » تسير بالفتنة بين بنى قيس ، فتثير تغلب على بكر وتثير بكر على تغلب، حتى يبيد بنو قيس :

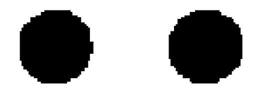
وعندى قد تبين بالملاحم — بأنك قاتلى دون العباد
وبعده شاعره تنزل عليكم — وتفتن بين قيس فى البلاد
وأنت برمح جساس ستطعن — وعبدى يذبحك بين الجماد
وتكتب بدمائك على البلاطة — لمن بعدك لتشتيت الأعادى
ويأتى أبو ليلى المهلهل — فيصلى الحرب فى كل البلاد
ويقهر كل جبار عنيد — بضرب السيف فى يوم الجلاد
وتأخذ الجليلة لك قرينة — وتحظى بالمسرة والمراد
ويظهر لك غلام بعد موتك — يسمى الجرو قهار الأعادى
وهو يقتل الى جساس خاله — وأما الزير تقتله الأعادى..الخ



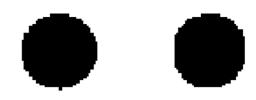
هذه « الشاعرة » التى تنبأ الملك حسان قبل موته لكليب بأنها ستسير بالفتنة بين آله حتى يفنى ذوو الأرحام بعضهم بعضاء تقول الملحمة انها ليست الا البسوس أخت الملك حسان . وقد وصفها النص بأوصـــاف عجيبة فهو يقول فيها انها « العجوز الشاعرة » ويقول فيها « وكانت هذه العجوز من عجائب الزمان وغرائب الأوان ذات مكر واحتيال وخداع ساحرة ماكرة ، وكانت لها أربعة أسماء » . فهى اذن ساحرة الى جانب كونها شاعرة . وكانت لهـــا عصـــاة شـــأن كل الســـحرة والســـاحرات . والنص يقول فيها « الشاعرة الساحرة الماكرة » ، وهى تقول عن نفسها : « اننى شاعرة أطوف القبائل والعشائر وأمدح السادات والأكابر » . كذلك نوه النص بفصاحة سعاد الشاعرة هـــذه ، وذكر أنها كانت جميلة الصورة رغم أنها عجوز ، كما روى عنها أنها فى شـــبابها كانت تخيف بفروسيتها الفرســـان وأنها نذرت ألا تتزوج الا بمن يقهرها فى حلبة المبارزة ، فلما بلغت العشرين قهرها ابن عمها سعد اليمانى وتزوجها ، وعاشت معه هنيئة البال سنوات حتى مقتل أخيها حسان .



هذه الصورة التى ترسمها الملحمة لسعاد الشاعرة الساحرة التى جرت الخراب على بنى قيس تقربها جدا من صورة كاساندرا أخت باريس خاطف هيلانة وبنت بريام ملك طروادة ، فهى التى تنبأت بعد تخريب طروادة بالخراب لبيت أتريوس ، بيت أجاممنون مخرب طـــروادة عندما خطف أخوها باريس هيلانة اليونانية ، وكانت هذه العذراء تلبس مسوح الكهانة وتهذى بما يلقيه اليها الرب أبولو ، رب الغيوب ، فيحسبها الناس عرافة مجنونة تطوف بالأبواب كما ورد فى « أجاممنون » أسخيلوس . أما كيف تحولت كاساندرا الفتاة النبية العذراء الى عجوز شاعرة ساحرة فربما كان ذلك نتيجة لميتامورفوز فولكلورى اختلطت فيه صـــورة الساحرة العجوز التقليدية بصـــورة الكاهنة المنجمة عروس اله الشمس ووعاء وحيه . وهى قد غدت شاعرة لأنها تنطق بسجع الكهان وتهيم فى كل واد وتقول ما لا تعرف . ثم ان هناك رواسب من فكرة عذارتها ـــ باقية فى قصة امتناعها عن الزواج الا من الفارس الذى يقهرها فى النزال ، وهذا ما فعله أبولو بكاساندرا ـــ وسعد اليمانى بسعاد .



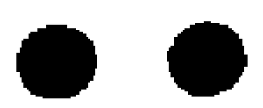
غير أن هذه اللعنة التى قرأتها كاسندرا فى لوح الغيب مقدرة على أجاممنون وبيت أتريوس والاغريق بعامة جزاء لهم على قتلهم أبيها بريام وأخيها باريس وعلى تدميرهم طروادة العصماء حاضرة ملك آلها ، نفذت فى أدب اليونان وأساطيرهم وفقا لقوانين القصاص الربانى ، بيد القدر وبمخالب ربات العقاب . أما سعاد الشاعرة فقد خرجت بنفسها تبذر بذور الفتنة بين بكر وتغلب .



تقول ملحمة « الزير سالم » ان سعادا حين علمت بمقتل أخيها حسان « قالت لابد لى من المسير الى تلك الديار وأقتل كليبا الغدار ، فاذا قتلته انطفأت نارى ، وأكون قد أخذت بثأرى » . ونزلت ببلاط الأمير جساس بن مرة فى بلاد الشام فى زى شاعرة مداحة ، ومدحت جساسا بجميل الكلام فأسرته بفصاحتها ، وطلبت أن تقيم فى بلاطه لتحتمى به ولتنعم بجوده .

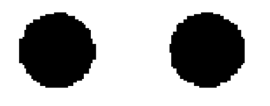
ومن يتأمل كلامها يجد أنها تشير فى غموض الى كارثة قومها ، وكأنها كاساندرا التى خرجت تطـوف بالأبواب تشحذ لقمتها كغجرية بعد أن هدم القدر عماد بيتها وأذلها بعد عز ونعمة :

تقول سعاد من قلب موجـع — زمان السـوء أبقـانا ذلائل
وأبعد غـلانا قد صرنا رخاصا — وبعـد الكثر قد صرنا قلائل
وبعـد العـز قد صرنا أذلا — وبعد السمن قد صرنا هزايل
فهذا الدهر ما له قط صاحب — فهـذا مسـتقيم وذاك مائل
وذا يبكى وذا يضحك ويلعب — وذا يندب عياله والحـلائل
فسـبحان الذى قدر علينـا — بغربتنا وتشـتيت الشـمائل
فبعد أن كنت فى خـير ونعمة — دعانى الدهر كالطلاب شاتل
أدور على المناصب والأمـارا — وأنزل فى القـرايا والمدائن
سمعت بذكركم يا آل مـرة — ثلاث شهور لى عندكم أسائل
أيا جساس يا فخـر البرايا — ويا كهف اليتامى والأرامـل
قصدتك لا تخيب فيـك ظنى — أيا ابن الأماجيـد الأصائل



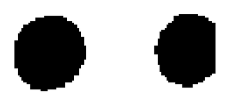
ورحب بها جساس فأقامت فى بلاطه شهورا ، وكان هدفها أن تثير الشقاق بين كليب بن ربيعة وقومه وبين بنى عمومته جساس

ابن مرة وقومه ، « فأخذت تلقى الفتنة والفساد بين الأمــراء والقواد حتى وقع الشر والنزاع وكثر القيل والقال » . فثار بنو بكر ، وهم قوم جساس ، على بنى تغلب وهم قوم كليب ، واتهم البكريون كليبا وقومه بالطغيان منذ آل اليهــم الملك العريض بعد اغتيال كليب لحسان اليمانى وترامى تخوم دولة كليب بعد استيلائه على اليمن .



وأراد بنو بكر أن يؤلبوا زعيمهم جساسا على كليب ليثور عليه ويغتاله ولكنه أمرهم بالتــأنى حتى يراجع كليبا فى أمر استبداده واستبداد قومه . ولما اشتدت الفتنة وعرف كليب بما يبيته بنو بكر له ولقومه غضب وطلب الى جساس نفى سعاد الشاعرة الساحرة من بلاطه لأنها مصدر كل هذه الفتنة ، فأبى جساس ، واستعد للقتال . وتوجس كليب خيفة من تحــركات جساس فقصد الى صوان أخيه الأصغر الزير سالم فى بيرالسباع، فوجده فى لهوه مع الأمير همام واستنهضه ليحافظ على ملك بنى تغلب ، بل وعرض أن ينزل له عن عرش البلاد ، قائلا انه جاء لزيارته « وأقيمك ملكا مكانى لأنى طعنت فى السن ولم يعد لى طاقة على معاطاة الأحكام ولا سيما وقد تغيرت الأحوال ووقع بين

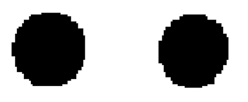
القبيلتين النزاع والجدال فاشتغل منى القلب والبال » . فسخر الزير سالم من جزع أخيه الملك كليب ، وأشار الى قصر كان قد بناه فى البرية من جماجم السباع التى قتلها ، وطمأنه على ملكه ما دام له أخ كالزير سالم ، ورده خائبا الى دمشق قائلا انه لا يزال أمامه سبعون وثلاثة سباع يطهر الأرض من شرها ، وحين يتم له ذلك سوف يلحق به . وهكذا عاد كليب الى حاضرة ملكه تحاصره الوساوس والمخاوف .



أما ما كان من أمر جساس وقومه ، فان « سعاد الشاعرة الساحرة الماكرة » قد استفحل أمرها فيهم فأطاعوها فى كل ما تقول . وهنا لجأت الى السحر لتزيد من لهيب الفتنة . قال الراوى انها : « أخذت طاسة من الفضة وملأتها من المسك والزباد والعطر ، وخفقت الجميع فى بعضه البعض ، وعمدت الى ناقتها الجربانة ، وأخذت تطلى أجنابها وتدهنها بذلك الطيب ، وأمرت بعض العبيد أن يأخذها للمرعى ويمر بها قرب صيوان جساس فى الصباح والمساء » ولما استشعر جساس العطر الزكى وعرف من العبد أنه من ناقة سعاد الشاعرة ، استقدمها ليستفسر منها عن هذه العجيبة فأنبأته « ان هذه الناقة من سلالة ناقة

صالح ، وفيها خواص غريبة يا ابن الأجواد ، فان بعرها من المسك وعرقها من الزباد » أما أسطورة « ناقة صالح » فلا شك أن ناقة صالح كانت لها أسطورة ، فقد ضاعت أو هى بحاجة الى بحث الباحثين . وأما جساس فقد أراد أن يمتلك الناقة « فافتخر بها على جميع الملوك » ، وعرض على سعاد الشاعرة أن تبيعه اياها بما تطلب من فضة وذهب ، فأبت واصطنعت الحزن الشديد قائلة ان هذه الناقة ما رآها أمير الا وطلبها منها ، وهى الآن قد لجأت الى مقام الأمير جساس فاذا به يريد أن ينتزعها منها ، فلم يبق أمامها الا أن ترحل عن دياره . فطيب جساس خاطرها وطمأنها على أن ناقتها باقية معها ما أرادت ذلك ، وهنا طلبت سعاد الشاعرة الى الأمير جساس أن يختص ناقتها الفريدة بمرعى فريد لأنها « لا تأكل الا من الرياحين وزهر البساتين » فقال انه ليس لنا كروم ولا بساتين . قالت : « وهذه الكروم التى بجانب القبيلة ، من هو صاحبها ؟ قال : هى لابن عمى كليب ، زوج أختى الجليلة وهمام متزوج أخته ضباع » قالت : « ما دام انكم أهل وأقارب ، وأنت ملك نظيره ، فلماذا يكون كليب أعظم منك؟ فقال : انه بعد قتله الملك تبع عظم أمره وانتشر ذكره ، وتملك على البلاد وأطاعته العباد . فلما سمعت هذا الكلام قالت : والله لقد أخطأت وبئس ما فعلت ، فانى تركت البحـــر وجئت الى الساقية وتعلقت بالذنب وتركت الرأس » وهكذا نجحت الحيلة : جرحت سعاد الشاعرة الأمير جساس فى كبريائه ، فأوغرت صدره على كليب ملك البلاد ، وأقسم أمامها أنه سوف يتحدى كليبا

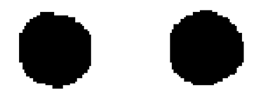
الذى اغتصب لنفسه كل هذا الملك العريض ويطالبه « أن يقاسمنى على أملاك المملكة ، والا ألقيه فى التهلكة » . وأذن جساس لسعاد الشاعرة أن تطلق ناقتها فى أى بستان يروق لها . مهما كانت النتائج . وهكذا بدأ الاستفزاز الكبير الذى أشعل نار حرب البسوس .



فان سعادا الشاعرة أمرت عبيدها أن يطلقوا ناقتها ترعى « فى البستان المعروف بحى كليب » وأن يتركوها تدمر الأشجار والأسوار ، وأن يصرعوا كل من يتصدى لهم لمنعها . وكان كل ما دبرته سعاد الشاعرة ، وهو أن عبيدها اقتحموا بناقتها بستان كليب وخربوه ، وكان أجمل بستان فى الدنيا ، لا يدخل فيه الا الملك وعياله ، واعتدوا على العبد ياقوت حارس البستان، فلما علم كليب بذلك غضب غضبا شديدا فأمر بردهم وذبح الناقة وطرحها خارج البستان . فلما تم كل ذلك ، وجدت سعاد الشاعرة فرصتها الذهبية فأمرت بسلخ الناقة وحملت جلدها الى جساس معولة مولولة مستصرخة اياه أن يثأر لها « وعصفت فى رأسه نخوة الجاهلية » ، وأخذ يستنهض همم رجاله للقتال ليغسل هذه الاهانة ، ولكن رجاله استمهلوه قائلين ان كليبا ربما كان

يجهل أن الناقة لضيف من ضيوف جساس ، وأشاروا بأن يرسل جساس الى كليب خطابا يعاتبه فيه على ما كان ويطالبه فيه بثمن الناقة ثم ينتظر الرد فأرسل جساس الى كليب كتابا بهذا المعنى حمله اليه أبو يقظان ، عبد جساس . ولكن سعاد الشاعرة استوقفت أبو يقظان فى طريقه الى كليب وأثملته بالخمر حتى فقد الصواب : « فعند ذلك فتشته فى ثيابه حتى عثرت بذلك الكتاب ، فقرأته فوجدته كتابا بسيطا خاليا من التهديد والوعيد فمزقته وأضافت اليه كلاما مغيظا . وهو هذه الأبيات :

« أمير كليب يا كلب الأعارب   أيا ابن العم لا تكبر عليه
فلازم أذبحك فى حد سيفى   وأنت شبيه حرمة أجنبيه »



ثم ردت سعاد الشاعرة الكتاب الى جيب أبى يقظان الذى ركب به الى كليب ولما قرأ كليب هذا الخطاب الفظ انتابه الهياج أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن أخذ الأمر بالروية ، وظن أن جساسا كان سكران حين كتب هذا الخطاب ، واكتفى بجلد العبد أبى يقظان واطلاقه ليعود الى مولاه جساس .

• •

ا وهكذا نجد أننا بازاء موتيفة شبيهة كل الشبه بحكاية الخطاب الذى كتبه كلوديوس الى ملك انجلترا طالبا فيه منه قتل الأمير هاملت ، وهو الخطاب الذى حمله عبر البحر روزنكراتتز وجيلدنسترن ، فاغتنم هاملت فرصة نومهما وسرق الخطاب وأضاف اليه ما عكس مضمونه ، أى أن يقتل ملك انجلترا الرسولين وأن يزوج هاملت من ابنته الجميلة .

• •

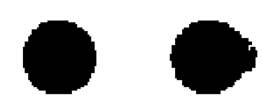
وحين عاد أبو يقظان الى مولاه جساس وروى له ما كان « صار الضيا فى عينيه كالظلام » ، ودخل الى خزانة السلاح ولبس آلة الحرب واستصرخ أبطاله أن يخرجوا لقتال كليب وبنى تغلب . ولكنهم أبوا أن يسايروه قائلين « وهل يجوز لنا يا أمير لأجل ناقة حقيرة ، نقاتل ابن عمنا الأمير كليب ونرفع فى وجهه السلاح بعد أن صاننا وحمانا بسيفه وقتل الملك تبع

حسان واستولى على الأقاليم والبلدان وجعل لنا ذكرا عظيما فى قبائل العربان على طول الزمان ؟ فان كان لك عليه دم أو ثأر فدونك واياه فلا تطلب منا مساعدة ولا نجـدة « فلما سمع جساس هذا الكلام انطلق الى سعاد الشاعرة ليسترضيها فى ناقتها بأى ثمن تطلبه . قالت : أريد واحـدة من ثلاثة أشياء . قال : وما هى ؟ قالت : أريد اما أن تملأ حجرى بالنجوم أو تضع جلد الناقة على جثتها لتقوم ، أو رأس كليب بالدماء يعوم . فقال لها : أما ملو حجرك بالنجوم أو أن الناقة تعيش وتقوم ، فهذا لا يقدر عليه الا الحى القيوم . أما رأس كليب فابشرى به » وانطلق جساس لفوره الى منازل بنى قيس من قوم كليب . فوجد كليبا يروض مهره فى وادى الحصا والجندل أعزل من السلاح ، ففكر فى طعنه من الخنف « فما طاوعته يده على ذلك مهابة » وواجهه وعاتبه على ما كان من قتل ناقة ضيفته سعاد الشاعرة ، فاعتذر كليب بأنه لم يكن يعلم بأن الناقة لشخص نزل فى حماه وعرض أن يعوض سعاد الشاعرة عن ناقتها بمئات النوق . ولما سقطت حجة جساس لجأ الى الخديعة فتظاهر بالقبول ثم دعا ابن عمه كليبا الى المبارزة بالجريد على سبيل الرياضة ، فغلب كليب جساسا فى المبارزة ، وهنا غرس جساس رمحـه فى صدر كليب بضربة قاتلة ، وحين رأى ابن عمه يتحشرج أمامه ندم على فعلته ، ولكن كليبا تنبأ له بعقاب من الله أليم « سيجازيك العادل الديان وسوف ترى ما يحل بك من الهوان ولا أظن أنه يصفو لك الزمان بعد الآن » فانطلق جساس وهو ممتقع

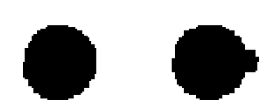
الوجه يرتجف فرقا . وكان يشهد هذا الأمر سعد عبد سعاد الشاعرة التى كانت قد أوفدته بسكين ومنديل أبيض ليحـز رأس كليب حين تفيض روحه ويأتيها به ، وتقدم العبد ليذبح كليبا ، ولـكنه ما لبث أن تراجع خوفا : « فوجده ذا هيبة ووقار ووجهه يتلألأ بالأنوار ، فتأخر عنه وخاف منه » وقبل أن تفيض روح كليب استفسر من العبد عن مراده فأعلمه العبد بكل شيء وروى له أن سعاد الشاعرة هى التى حرضت جساسا على اغتياله انتقاما منه لأنه قتل أخاها التبع حسان . فتذكر كليب نبوءة الملك حسان ساعة أن قتله وقبيل أن تفيض روحه . وأدرك أن موته تحقيق لهذه النبوءة ، « وهذا تقدير رب الأنام » . ولـكن كليبا قبل أن يموت طلب من العبد أن يحمله الى بلاطة قريبة ليكتب عليها وصيته الأخيرة لأخيه الزير سالم ، وغمس عودا فى دمه الجارى وبه كتب هذه الوصايا العشر :

يقول كليب اسمع يا مهلهل   مذل الخيـل قهار الأسـود
ى ما حـل من جساس فى   طعنى طعنة منهـا لا أعـود
أيا سالم توصى باليتـامى   صغار وبعدهم وسط المهـود
واسمع ما أقولك يا مهلهـل   وصايا عشـر افهـم بالأكيد
فأول شرط أخوى لا تصـالح   ولو أعطوك زينات النهـود
وثانى شرط أخوى لا تصالح   ولو أعطوك مالا مع عقـود
وثالث شرط أخوى لا تصالح   ولو أعطوك نوقا مع نقـود
ورابع شرط أخوى لا تصالح   واحفظ لى ذمامى مع عهودى
وخامس شرط أخوى لا تصالح   فان صالحت لست أخى أكيد

وسادس شرط أخوى لا تصالح فقد زادت نيران الوقود
وسابع شرط أخوى لا تصالح وسفك دمهم فى وسط بيد
وثامن شرط أخوى لا تصالح واحصد جمعهم مثل الحصيد
وتاسع شرط أخوى لا تصالح فانى اليوم فى ألم شديد
وعاشر شرط أخوى لا تصالح والا قد شكوتك للودود

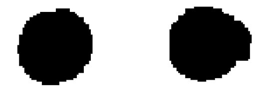


ثم فاضت روح كليب ، فتقدم العبد وذبحه ولوث المنديل بدمه وعاد الى مولاته سعاد الشاعرة التى فرحت فرحا عظيما وخرجت من القبيلة سرا بعد أن شفت غليلها بمقتل كليب .



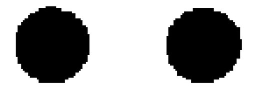
ولما عاد جساس الى آله وعلم بنو مرة بما فعله عنفه أبوه مرة أشد تعنيف كما عنفه أخوته لأنه قتل ابن عمه فى هذا السبب التافه ، وكان كل أخوة جساس حاضرين ما خلا هماما الذى كان يقيم مع الزير سالم فى بير السباع يصلان الليل والنهار بين

اللهو والشراب والغناء وانشاد الشعر . وحذر مرة بنيه من سيف الزير سالم ، واقترح أن يرسل جساسا اليه فدية له عن دم كليب ، « وبهذه الوسيلة تزول الفتنة وتنطفىء النار » . ولكن بنى مرة قالت « ما هذا الكلام يا أبانا ؟ فهل بعد كليب غير جساس يليق أن يكون ملكا ؟ فان كنت تحسب حساب المهلهل فما هو الا كالأهبل وليس له دأب الا أكل الكباب وشرب الشراب » .

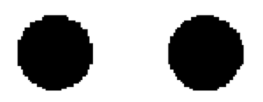


وخاف بنو مرة على همام أن يقتله الزير سالم لو أنه علم بمقتل أخيه كليب ، فأوفدوا جارية له اسمها رباب لتستطلع الأمر . وحين بلغت رباب صيوان الزير سالم انفردت بهمام وأسرت اليه بما كان فمادت الأرض تحت قدميه . ورآهما الزير سالم على هذا النحو فتوجس شرا ، وأطلعه همام على حقيقة ما جرى ودموعه تجرى على خديه ، وعرض أن يموت فدية لكليب حتى لا يرفع الزير سالم سيفه على بنى مرة . ولكن الزير سالم أبى غاضبا وقال : « وحق من يعرف الغيب ، وروح أخى وحبيبى كليب ، انى لا أرفع السيف عنكم حتى أشفى غليلى منكم ثم أقتلكم عن بكرة أبيكم وأهتك النساء والبنات

وأجعلكم مثلا بين الكائنات . ولو لم تكن زوج أختى وسميرى ما كنت أعلمتك بما فى ضميرى ، بل كنت قتلتك فى الحال وأورثتك النكال ، فسر الآن الى الأطلال ولا عدت ترينى وجهك فى الحرب والقتال » .

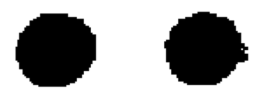


وانطلق الأمير همام عائدا الى قومه بنى مرة (آل بكر) كاسف البال حزينا ، وأراد أن يصطحب معه ولده شومان أو شيبان ، ولكن شومان آثر أن يبقى مع خاله الزير سالم ، فقد كان أبوه الأمير همام متزوجا من ضباع أخت الزير سالم . وأراد الغلام شيبان أن يهدىء من ثائرة خاله ، ولكن الزير سالم فى هياجه ضربه بسيفه فأرداه قتيلا وحز عنقه ووضع رأسه فى مخلاة جواده وأطلق جواد شومان ليعود الى أبيه وأمه فى منازل بنى مرة .



فنحن اذن بازاء موقفين مأسويين من أعظم طراز : امرأتان وقعتا فى حيرة بين الولاء للأخ (أو للقبيلة) والولاء للزوج

والولد . فهناك أولا جليلة بنت مرة ، وهى أخت جساس وهمام وسلطان وشاليس أو جاويش ، قتل أخوها جساس زوجها كليبا بفتنة سعاد الشاعرة المنتقمة لقتل أخيها التبع حسان . وقد خرجت جليلة بنت مرة من مأزق الاختيار باختيار جانب أخوتها وقبيلتها ، حتى قبلما تقع الجريمة . فهى حين عرفت بنبوءة الملك حسان ساعة وفاته بأن الأقدار قد قدرت — انتقاما له — أن يقتل كليب برمح جساس بن مرة وأن الزير سالم سيخرج من عزلته ويبيد آل مرة عن بكرة أبيهم أرادت أن تغير مجرى القدر دون جدوى فسعت عند زوجها الملك كليب بكل ما أوتيت من مكر النساء حتى يدمر كليب الزير سالم ، وبذلك ينجو قومها من الموت المحقق .



وهذا الذى يبدو استطرادا فى ملحمة « الزير سالم » ليس فى حقيقة الأمر استطرادا فمؤامرات جليلة على الزير سالم ، هى الثمرة الطبيعية لنبوءة التبع حسان . كذلك هذه المرأة الأخرى الشقية ضباع أو أسماء أخت كليب والزير سالم ، قد وقعت فى نفس المأزق التراجيدى حين رأت أخاها الزير سالم يقتل ابنها شومان أو شيبان انتقاما من زوجها همام ، أمير بنى

مرة . ويبدو أيضا من سياق الملحمة انها رضخت حزينة لمنطق الأخ ، وهو منطق القبيلة ، ورجحته على منطق الزوج والولد ، وهي تعبر عن هذا الولاء الموزع بقولها للزير سالم الذى خرجت اليه شاكية من جنونه :

تقول ضباع يا سالم علامك بجـاه الله ما سويت يا بنى
بثأر كليب تقتل ابن أختـك وتخرق مهجتى وتزيد حزنى
حزنت على كليب وما جـراله وحزنى فى صميم القلب مبنى
ولكن قد حكم ربى مـراده وربى ما كتبـه لى يصيبنى

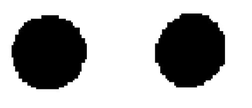
● ●

فهى اذن قد استسلمت وعدت ما جرى لولدها من قضاء الله ، على العكس من جليلة بنت مرة التى أرادت أن تغير مجرى القدر بقتل الزير سالم قبلما يشتد عوده ويفنى قبيلتها ..

● ●

« (قال الراوى) ولما اشتهر كليب ووصـــل الى أبياته الخبر ، وعلمت بذلك جميع أهله وبناته ، فمزقوا الثياب ،

وأكثروا من البكاء والانتحاب فتهتكت الوجوه الملاح ووقع فى الحى العويل والصياح وكسرت الفرسان السيوف والرماح ، وخرجت بنات كليب من الخدور وهن مهتكات الستور ناشرات الشعور حافيات الأقدام يقطعن السهول والآكام ، وقد امهن أختهن اليمامة ، وكان ذلك اليوم مثل يوم القيامة ، ولما وصلن ابيه وجدن الطيور حائمة عليه ، فوقعن على جثته وقبلن يديه وارتمين حواليه ، ولما قرأن ذلك الشعر الذى كتبه على الصخرة زادت أحزانهن وأخذن يلطمن على وجوههن » .



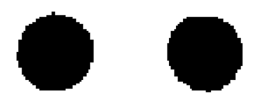
هذا الوصف الرهيب لمناحة كليب يوحى الينا ايحاء بمدخل « حاملات القرابين » لأسخيلوس ، حيث نجد اليكترا بنت أجاممنون مثل اليمامة بنت كليب تتقدم كوارس الاماء النائحات الى قبر أجاممنون ـ كليب . كذلك نجد اليكترا تستنفر أخاها أوريست للثأر لأبيه القتيل من ايجيست بكلام يشبه استنفار اليمامة لعمها الزير سالم ليثأر لأبيها القتيل من قاتله جساس وهو ما يضع جساس موضع ايجسثوس ويضع كليبا موضع أجاممنون ويضع اليمامة موضع اليكترا ويضع الزير سالم مؤقتا موضع أوريست ، فهو الأخ المنتقم لأخيه ، لأن الابن

المنتقم لأبيه سيظهر فيما بعد فى صورة الفتى هجرس بن كليب الذى كانت جليلة بنت مرة حبلى فيه حين قتل زوجها كليب وبعد مولده أقصته جليلة بنت مرة الى قصر خاله وأبناء خؤلته منجد بن وائل أو وائل بن منجد لينشأ بعيدا عن بلاط الشام ، كما أقصت كليتمنسترا الغلام أوريست الى قصر أستروفيوس عاهل فوكيس لينشأ بعيدا عن بلاط أرجوس حاضرة ملكها . وهذا يضع جليلة بنت مرة فى موضع الملكة الضارية كليتمنسترا بلا جدال ، فهى زوج الملك القتيل كليب غازى اليمن وقاتل عاهلها التبع حسان ، بمثل ما كانت كليتمنسترا زوج الملك القتيل أجاممنون غازى طروادة وقاتل عاهلها بريام وولده باريس خاطف هيلانة ومشعل الحرب الضروس . فاذا ذكرنا أن كليتمنسترا نفسها كانت أخت هيلانة بمثل ما كان زوجها أجاممنون أخا منيلاوس زوج هيلانة ، وجدنا أن التصفية النهائية فى الاقتباس العربى ، أو أن الجسم الأصلى للأسطورة القديمة ، وهى فى ظنى أقدم من اليونان والعرب جميعا كما سيتضح فيما بعد ، قامت على ادماج شخصية أجاممنون فى شخصية منيلاوس متمثلين فى شخص كليب وعلى ادماج شخصية كليتمنسترا فى شخصية هيلانة متمثلتين فى شخص جليلة بنت مرة . وبهذا وحده نفسر رحلة جليلة الى بلاط حسان ملك اليمن ، لتزف اليه كما رحلت هيلانة الى بلاط باريس فى طروادة لتزف اليه ، وبه أيضا نفسر أمومة جليلة بنت مرة للغلام هجرس وابعادها اياه الى قصر وائل بن منجد ليعود فى النهاية عندما

يشتد عوده ليقتص لأبيه القتيل على غرار ما فعل اوريست بن أجاممنون وكليتمنسترا . فنحن اذن فى بلاط الشام بمثل ما نحن فى بلاط ارجوس . واذا كانت الأسطورة العربية تجعل من جساس أخا لجليلة بنت مرة بينما الأسطورة اليونانيـة تجعـل من ايجستوس خليـلا لكليتمنسترا ومن أقربائها الأدنين ، فهذا لا يمنع أن جساسا قد اغتال كليبا طمعا فى عرشه بمثل ما قتل ايجيستوس أجاممنون (وهما أبناء عمومة أيضا) طمعا فى عرشه واعتقادا منه أنه أولى منه به بحق الوراثة ، فهو ابن ثايستيس الملك الشرعى الذى خلعه أتريد والد أجاممنـون واغتصب صولجانه ونفاه من البلاد وليس يبعد اذن أن كل الدسائس التى حاكتها جليلة بنت مرة للفتك بالزير سالم أخى كليب كانت أصلا هى الدسائس التى حاكتها كليتمنسترا بمعـاونة ايجيستوس للفتك بأجاممنون . بمعنى آخر ، ليس ببعيد أن تكون جليلة بنت مرة قد اشتركت مع جساس فى قتل زوجها كليب اشتراك كليتمنسترا مـع ايجيستوس فى قتل أجاممنون ، واذا كانت الأسطورة العربية لا تلقى هذه الظلال البشعة على شخصية جليلة بنت مرة ، فهى على الأقل تحافظ على أخطر عنصر فى هذا الموقف وهو انحياز جليلة الى جساس وقومه وعملها الدائب لحماية حق أسرتها ومناصرتها اياهم على كليب وقومه :

مات أبى يا عـم من طعن القنـا
به غـدر جساس الكلب المشـوم

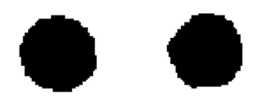
وأنت هذا اليوم جالس فى صــفاك
يا مهلهل بالعجــل انهض وقــوم
يا مهلهل ضــاقت الدنيــا عــلى
وســقانى البين كاسات الســموم



هذه هى الأبيات التى قالتها اليمامة فى استنفار الزير سالم للانتقام لأبيها كليب . وعندما رأى الزير سالم جثة أخيه القتيل بكى واستعبر وألقى بنفسه عليه وهو يندبه بفاجع الكلام . ولما أطلعته اليمامة على وصية كليب المنقوشة بدمه على البلاطة ، قال : « وحق الاله المتعال ، انى لا أصالح الى الأبد ما دامت روحى فى هذا الجسد » فهو اذن قد أقسم على الانتقام لأخيه كما أقسم أوريست ثلاثا فى حاملات القرابين : مرة بابولو ومرة بالاله بيثــو Pythio ومرة بنفسه أن ينتقم لأبيه القتيــل ، أو كما أقسم هاملت ثلاثا أمــام شــبح أبيــه أن ينتقم له من قاتله . واذا كان « الطفــان الرهيب » قد ألقى ثلاثا فى

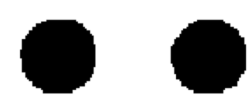
« الأوريستيا » أو فى « هاملت » ، فهناك أثر لهـذا الحلفان بالثلاثة فى « الزير سالم » . فالزير سالم عندما علم بمقتل كليب أقسم ثلاثا أمام همام بعزمه على الانتقام وابادة آل بكر . يتجلى هذا فى قوله :

فوالله ثـم والله ثـم والله ... ثلاث أقسام يحلفها الحسيب
فلولا حبنـا ما عيش أكلنـا ... ولا كاسـات شربناها بطيب
لكنت أمد يدى نحو سـيفى ... وآخذ ثأر أخـوى عن قريب



وهو يكرر هذا القسم ثلاثا أمام أخته أسماء أو اسمى الملقبة بضباع حين جاءت تندد بما فعله الزير سالم بولدها شومان أو شيبان بن همام :

يقول الزير من قلب حـريق ... فقتل كليب زاد اليوم حـزنى
ألا يا أخت قـلى من بكاك ... ولا تخشين من أمـر يعبنى
فـوالله ثـم والله ثـم والله ... اله العرش منذ أدعو يجبنى
فلا بد لى من حرب الأعادى ... وأقتـل كل جبـار طلبنى



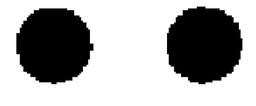
والبلاطة التى دون عليها كليب « وصاياه العشر » بدمه مهيبا بالزير سالم عشر مرات ألا « يصالح » ولو انطبقت السماء على الأرض أشبه شيء بنبوءة أبولو الذى قاد خطى اوريست بنبوءته من بعيد الى أرض الآباء لينتقم لأبيه الفقيد . بل ان وجود همام وحده مع الزير سالم وهو صفيه وسميره ونديمه من دون سائر الناس ، فى الصيوان عند بير السباع وتلقيه معه نبأ مصرع كليب من فم الرباب يذكرنا بشخصية بيلاد زميل اوريست فى « الاوريستيا » وبهوراشيو زميل هاملت فى مسرحية شكسبير . وكذلك الرباب ملقية الخبر عليهما تذكرنا ببيثيا كاهنة معبد دلف وعرافة الاله ابولو رب الغيوب التى تنطق بلسانه وتحمل نبوءاته الى سائر الناس . أما قبر كليب فقد كان أشبه بقبر هاملت منه الى قبر اجاممنون ، فقد شيعه آله بأعظم شعائر التقديس والاحترام (راجع وصية فورتنبراس بجثمان الأمير هاملت فى ختام « هاملت ») : « ثم أتوا بكليب الى الديار ودفنوه بكل احترام واعتبار واحتفال ووقار ، ورثوه بنفائس الأشعار وبنوا على قبره قبة من أعظم القبب وطلوا حيطانها بالفضة والذهب ، فكانت عجيبة العجب فى بلاد العرب ،

وزخرفوها بالنقش الفاخر وكتبوا على حيطانها أســماء الاله القادر وهى هذه الأسماء التى يتكنى بها رب السماء » أى كتبوا عليها أسماء الله الحسنى التى أثبتها الراوى فى الكتاب « افادة للطلاب » ثم قدم الزير سالم القرابين على ضريح أخيه كليب (قارن اوريست وهو يقدم قربانه ، خصلة الشعر ، على ضريح أبيه اجاممنون) .



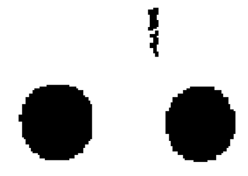
واستعد الزير سالم للثأر لدم كليب المهراق من بنى بكر وهم بنو مرة . فجمــع سادات بنى تغلب ، وهم بنــو ربيعة وبايعوه ملكا على الشام « وعاهدوه على كرسى المملكة » ، « فلما تملك على القبيلة طرد امرأة أخيه الجليلة ، فسارت الى بيت أبيها مع أهلها وجواريها ، وكانت جليلة حاملة بولد ذكر سوف يأتى عنه خبر » ، وهذا هو هجرس الذى قدر له أن يكون الابن المنتقم لأبيه . وأقسم الزير سالم « بأنه لا يشرب المدام ولا يلتذ بطعام حتى يأخذ ثاره بحد الحسام » ويبيد بنى بكر عن آخرهم، وحشد الحشود ولبس سلاحه وخرج للوقعة الكبرى مع بنى مرة

يتقدمه ذلك الطبل المسحور واسمه « الرجوج » ، وهو الذى آل الى كليب من الملك حسان بعد أن فتك به كليب .



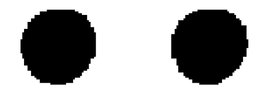
خرج الزير أبو ليلى المهلهل على رأس أربعمائة ألف من الشجعان ليناجز فى وادى الذئاب أو الذنائب جند بنى مرة ، وكانوا مئة ألف على رأسهم جساس ، ومائة ألف على رأسهم همام ، أما مرة الشيخ نفسه فقد كان على رأس الباقين . وفى هذه الوقعة الكبرى انتصر الزير سالم وأباد ثلاثين ألفا من رجـال بنى بكر . « وكان للمهلهل صديق يركن اليه ويعتمد فى أموره عليه ، قوى الجنان فصيح اللسان يقال له امرؤ القيس بن اياد ، وكان يقاربه بالفروسية ويساويه بالفصاحة والهمة العلية ، فقاتل معه فى ذلك اليوم وفتك فى صناديد القوم وكان لا يفارق الزير فى القتال ويحمى ظهره من غدر الرجال » . هذا الصديق الملازم للزير سالم ـــ امرؤ القيس بن اياد ـــ يذكرنا بشخصية بيلاد وهوراشيو فى « حاملات القرابين » وفى « هاملت » وهو فى جميع الأحـوال بمثابة الأنا الآخر alter ego للزير سـالم والأوريست ولهاملت ، أو ناصحه الأمين ، أو عقله الأرجح الذى يضبط عواطفه الجامحة أو يذكيها ، فقد أراد الزير سالم أن يصل

الليل بالنهار فى القتال ، ولكن امرأ القيس بن اياد خفف من غلوائه وحذره من القتال فى الظلام .



وفى اليوم التالى التقى الجمعان وحصد الزير سالم ومعه امرؤ القيس بن اياد ورجاله الأشداء آلاف الرؤوس ، وفى كل يوم كانت صيحة الحرب التى يطلقها الزير سالم : « يا لثارات كليب » وحين جاء المساء افترق الجمعان بعد أن نزلت النوازل ببنى مرة . وفى اليوم الثالث خرج الزير سالم ومعه امرؤ القيس ابن اياد وأبطاله الشجعان ، فمزقوا الصفوف وفرقوا الألوف ، واستمر الحال على هذا المنوال ثلاثة شهور ، هلك فيها من قوم جساس مائة ألف مقاتل « ما بين فارس وراجل » وقتل فيها من رجال الزير عشرة آلاف من الأبطال . وحين تكشفت الهزيمة لجساس خشى أن يبيد الزير سالم بقية قواته فآثر الهرب مع بقية أنصاره من العرب . وهكذا كتب النصر للزير سالم فى حلبة القتال ، واستتب الملك فى يده على الأمصار فنزل فى قصر

أخيــه كليب يصرف الأمور ، ولكنه لم ينس أن ثأره لا يتم الا بقتل جساس .

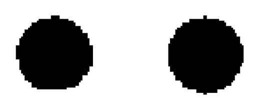


ودخل العابد نعمان على الزير سالم ملكا ، والعابد نعمان هو العراف صديق كليب الذى أشار عليه بغزو قصر ملك اليمن بحيلة الخيل أو الجمال حاملة الصناديق المخبأ فيها الأبطال ، على غرار ما أشار أوليس أو اوديسيوس على أجاممنون واليونان بحيلة حصان طروادة . قال العابد نعمان للزير سالم انه رأى فى المنام أن الزير سالم قادم عليه «سبع سنين منحوسة» ، « فاياك من هذا النهار أن تحارب أحدا من ملوك الأقدار » ، وفى صيغة أخــرى « فاياك من هــذا النهار أن تحارب أحــدا من ملوك الأقطار » . فاذا تجنب الزير ســالم الحروب أثناء هــذه المدة العصيبة رافقه السعد والاقبال . فعمل الزير ســالم بمشورة العابد نعمان و « أوقف الحرب أربع سنين كوامل » انصرف فيها عن مخالطة البشر وعاد الى حياة الشراب والطعام التى كان يحياها أيام اعتكافه .

• •

وحين علم بنو مرة بوقف القتال اطمأنت نفوسهم ، وعادوا الى منازلهم بعد أن كانوا قد نزحوا عنها . وفى السنة السادسة من وقف القتال رأى جساس بن مرة حلما مرعبا : رأى انه وجد بقرب صيوانه حوضا من الماء وبينما كانت قومه تشرب منه ، اذا بذئب كاسر جاء الى الحوض فى هيئة جمل كبير له ثمانية أنياب ، فشرب من الحوض ، ثم ضرب الحوض بنابه فانشق وتهدر منه الماء حتى أوشك قوم جساس أن يهلكوا من العطش . ثم رأى النساء والأولاد فى ثياب السواد والدم جاريا كالمجارى ، والجمال يهش بعضها بعضا ودمها على الأرض يسيل . واستيقظ جساس من حلمه مرعوبا ، وأرسلوا فى طلب المنجم « عمار الرياحى » لتفسير الحلم ، فأنذرهم عمار الرياحى بشر عظيم (قارن حلم كليتمنسترا فى « حاملات القرابين ») وأول المنام بأن الزير سالم سوف ينقض عليهم فى وقت قريب ، وظهر للمنجم أيضا بأن عدية أخا الزير سالم عنده مهر أدهم لا مثيل له اسمه

« عندم » ، وان سعد الزير مقرون بهذا الحصان فيه ينتصر فى الحرب والطعان ، فاذا ملك بنو مرة هذا الجواد أسروه فى القتال والطـــراد .



واستبشر جســـاس بهـــذا النبـــأ بدلا من أن يغتم ، وكان يعلم أن الزير سالم بعيد عن دياره مع رجاله فى الصيد والقنص وأن المهر « عندم » قائم فى الديار وليس فى الديار الا النساء . فركب جساس فى ثلاثة آلاف فارس واقتحم قصر الزير ليأسر المهر ولم يجـــد مقاومة لأن القصر خـــلا من الرجال . وأرادت اليمامة أن تمنعه من ذلك قائلة ان المهر لعمها عدى ، ولكنه لم يلتفت لقولها وركب المهر وانطلق به الى منازل بنى مرة . وجرب جساس المهر « عندم » ، مهر ابن عمه عدية ، فسبق كل خيل بنى مرة ما خلا « القميرة » فرس أخيه سلطان . وفى رواية أخرى أن اسم المهر « قوطر » لا « عندم » لأن الزير سالم يسأل اليمامة عن هذا المهر بقوله :

فأين المهـــر قوطر يا يمـــامة   عدم صبرى وفارقنى رشادى
أمات المهر أم أحد أخـــــذه   من الأوباش والناس الأعادى

• •

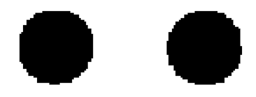
ولكن الغريب أن الزير سالم فى نفس الطبعة من الملحمة لا يلبث أن يسمى المهر « بعندم » أيضا :

وآخذ ثارنا من آل بكر   وأطفى النار من طى الفؤاد
وآخذ مهرنا المدعو بعندم   ويظهر ذكرنا بين العباد

• •

وهكذا خرج الزير سالم فى ثلاثة آلاف فارس لاسترداد المهر ، وكمن رجاله فى وادى « الهجين » أما هو فقد كمن فى وادى « المطلا » (ممر متلا ؟) وكان هذا المكان يبعد عن بنى مرة مسافة ميل . وبناء على مشورة الزير سالم تزيا أخوه عدية فى ثياب ممزقة وقصد الى حى بنى مرة ، وزعم أنه من بلاد الصعيد وأن صناعته « سياسة خيل الأماجيد » ، ولكن الزمان جار عليه . ورق له قلب جساس فأطعمه قائلا : « اذا كان من بلاد الصعيد ، فهو أدرى بسياسة الخيل من العبيد ، فدعوه

يسوس لنا عندم المهر الجديد وأنا أعطيه كل ما يريد ، وان وجدته من الماهرين سلمته جميع خيلى وجعلته رئيس اسطبلى » . وما ان اعتلى عدية مهره حتى لكزه فطار به كالرياح وعاد به الى حيث يكمن الزير سالم . ولما رأى جساس هذه الحيلة أطلق فى أثر عدى فرسانه ليلحقوا به . والتحم الجمعان ، وكانت وقعة رهيبا اندحر فيها جساس ورجاله . وكان الزير سالم يصول ويجول على ظهر المهر الأدهم بدلا من جواده « أبو حجلان » .



ولما كثرت الهزائم على بنى مرة أوشك اليأس أن يستبد بهم، فقد كان الزير سالم لم يقبل منهم وساطة ولا فدية لايقاف الحرب ، فلم يبق أمامهم الا أن يرسموا الخطة للتخلص من الزير سالم : « فقال سلطان لأخيه جساس : اعلم يا أخى بأن الزير فى كل صباح يمر على قبر أخيه فيجيبه بالسلام ، ويقول له : قد قتلت فى ثارك فلان وفلان ، فهل اكتفيت أم لا ، فلا يجيبه أحد . فالرأى عندى أن تنتخبوا رجلا تضعوه داخل القبة بحيث لا يراه أحد . فاذا مر الزير على القبر حسب عادته وسأل أخاه

ذلك السؤال ، فيجيبه بصوت خفيف من قلب ضعيف : لقد اكتفيت يا أخى فاغمد سيفك من هذا اليوم عن قتال القوم ، واياك أذية البشر فان ذلك مما يجلب الضرر . فاذا سمع هذا المقال فلربما ينطلى عليه المقال فيكف عن الحرب والقتال » .
ووافق بنو مرة على رأى أخيهم سلطان . وأوشكت الحيلة أن تنجح ، فقد أنفذوا الى ضريح كليب رجلا فقيرا قبع فيه ، وعندما مر الزير سالم وناجى كليبا بما اعتاد أن يناجيه به ، أجابه بأن يغمد سيفه ويكف عن القتال . وظن الزير سالم أن معجزة قد حدثت وأن أخاه كليبا قد بعث من الأموات ، وفى نشوة الفرح دخل الضريح ، فألفى فيه ذلك الصعلوك ، وأوشك أن يقتله ولكنه استجار برميم كليب وروى على الزير سالم حقيقة قصته فعفا عنه .

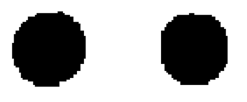


ومضى الزير سالم فى قتال بنى مرة ، « وكان كلما أقبل من الحرب فى المساء تلتقيه اليمامة مع جماعة من النساء فتقول : يا سيد الناس ، هل أتيت برأس خالنا جساس ، حتى نخلع السواد ويطيب الفؤاد ؟ فيقول : كونى براحة بال ، فسوف تبلغين الآمال باذن الاله المتعال » .

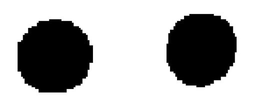
• •

وحين غلب اليأس جساسا وبنى مرة استقر رأيهم أن يلجأوا الى بلاد الحبشة والسودان ، حيث كان يحكم الملك « الرعينى » أو « الزغبى » (الاسمان يردان فى النص الواحد) ابن أخت التبع حسان . ولعله مما يلفت النظر أن نص الملحمة يقول ان جساسا « أخذ معه أخته الجليلة لتشفع لهم عند حريم الملك الرعينى » ، وهو قول يوحى بأن جليلة بنت مرة كانت لها كلمة نافذة عند التبابعة أو فى دولة سبأ ، دولة اليمن والحبشة ، وهذا لا يمكن أن يكون الا اذا كانت صلتها بحسان اليمانى شبيهة بصلة هيلانة بباريس الطروادى ، أى أنها فرت معه من زوجها كليب حتى دمر كليب اليمن وملكها واسترد جليلة بمثل ما فعل اجاممنون ـــ منيلاوس . وبالتـــالى تكون حكاية تواطئها مع كليب لقتل حسان اليمانى حكاية دخيلة . وحين علم « الملك الرعينى ، وكنيته أبو فهد » أن هؤلاء اللاجئين ينتمون الى القوم الذين قتلوا خاله الملك حسان ، أراد أن ينكل بهم ، ولم ينقذ جساسا وبنى مرة الا أن جليلة برزت له « مثل الطاووس لابسة أفخر الملبوس كأنها العــروس » أى تبرجت له تبرج الأنثى تصدت للذكر فخلبت لبه وجعلته يشرع السيف للدفاع عن بنى

مرة . واستنهض الرعينى أو الزغبى ملك الحبشة أخاه الأمير غطاس قائد جيش السودان أن يجمع الفوارس ويحشد الحشود ويدق طبول الحرب . وسرعان ما خرج الملك الرعينى وأخـوه غطاس مع جساس ورجالاته على رأس ستمائة ألف مقاتل لملاقاة الزير سالم وقطعوا الفيافى والقفار حتى بلغوا ديار الشام .

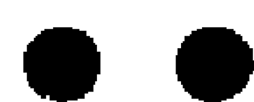


أما الزير سالم فقد عاد الى حياة اللهو والشراب حين علم بهرب أعـدائه الى الحبشة والسـودان ، فيما خـلا شاويش أو جاويش أو شاليس أخا جساس الذى كان يحب الزير سالم فاعتصم به وأخذ الأمان . وكان أول من أحس بقدوم الرعينى وجساس فى هذه الحشود الكثيرة عدى أخو الزير سالم فأخذته النخوة وأراد أن يوقظ أخاه اللاهى الى الخطر المحدق به ونادى بأنه سيخرج وحده لملاقاة كل هذه الحشود .



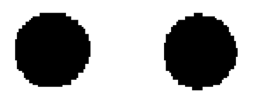
وأحس الزير سالم بالخطر المحدق به فجهز للحرب ثم انه « صبر الى الليل فغير زيه وتنكر حتى لم يعد يعرفه أحد من

البشر ، وجعل نفسه كأنه أحد شعراء العرب الذين يقصـــدون الأمراء وأرباب المناصب والرتب طمعا فى الفضة والذهب ، ثم ركب الحصان وتقلد بالحسام من تحت الثياب » وقصد الى صيوان الرعينى أو الزغبى فى زى الشاعر الطواف المداح . واستنشدته بدور زوجة الرعيني فأجاد فى الملك الرعينى الانشاد، فأجزل له الرعينى العطاء . وهنا وثب الزير سالم على الرعينى وصرعه وأعمل التقتيل فى حاشيته . وحين أحس جيش الحبش والسودان بما جرى لمليكهم هاجوا وثاروا وظنوا أن بنى مرة قد أوقعوهم بالخديعة فى كمين يكون فيه حتفهم فأعملوا فيهم السيوف وقاتلوا جساسا وقومه قتالا مريرا . وفى الصـــباح أحاط الزير سالم بجيشه جيش الحبش والسودان وأوقع بهم الهزيمة المنكرة وقتل القائد غطاس وفر جساس مدحورا .



ولما عظم الأمر على جساس قصد الى العابد نعمان وناشده أن يتوسط عند الزير سالم ليوقف الحرب « التى أهلكت الرجال ورملت النساء ويتمت الأطفال » . فرق لحاله وسعى الى الزير سالم فاستجاب له ، وانصرف الزير سالم الى « الملاهى وشرب المدام وأكل الطعام وسماع الأصوات والأنغام ومغازلة النســاء فى

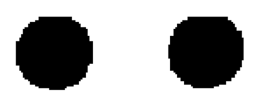
الصباح والمساء » وكان جساس يتحين فرصة ليغتاله ، وجاء اليه « ان الزير طريح الفراش فى الخيام من كثرة شرب المدام » واتفق جساس واخوته على أنه « بعد غروب الشمس يركب أخوهم سلطان فى جماعة من الفوارس ويكبس الزير على حين غفلة » . وقد كان . وهنا تبدأ حلقة عجيبة لا تخرج عن سرد قصة أوزيريس وايزيس المشهورة منسوبة الى الزير سالم . وهذا ما جرى :



« ولما كان الليل ركب سلطان (قارن ست الشرير أخو أوزيريس) فى ثلاثة آلاف فارس ، وقصد حى المهلهل ، ولما صار هناك هجم عليه وهو راقد فى الخيمة سكران (قارن المأدبة التى أقامها ست لأوزيريس ليتمكن منه بعد أن يثمل بالخمر) ، فأحاطت به الفرسان وقبضوا عليه وأوثقوه كتافا (قارن وضع أوزيريس السكران فى الصندوق وحبسه فيه) ثم نزلوا عليه بالسيوف الى أن أثخنوه بالجراح .. ثم وضعوه فى جلد جاموس وأخذوه الى عند أخته ضباع وقالوا لها : قد أتيناك بقاتل ولدك فخذيه واشفى منه غليل كبدك .. فما هان عليها ذلك الأمر ولكنها أظهرت السرور والفرح ، وقالت : ان جزاء هذا الغدار الحرق

بالنار .. وأما هى فقد احتارت فى أمرها وزادت حزنها .. فبينما هى فى بحر من الأفكار واذا به قد أفاق من غشوته وصحا من سكرته وقال :

يقول الزير أبو ليلى المهلهـل	ونار الحزن توقد فى حشاه ..
أتونى والمقـــدر كان كائن	وحبـلى كل ممـا أن تراه
أتوا بى لعندك يا أخت حتى	تنالى الثـأر يا غاية منـاه
كلينى يا ضـباع أو اقتلينى	أنا أخوك اذا أحبتك القنـاه
فأتتى تشبهى اللبـوات حقا	وانى مشـبه سبع الفـلاه
فالقينى بصـــندوق مزفت	وارمينى ببحـر فى ميـاه
أيا أسما افعلى أنت بأصلك	ربيعـة أبينا ما فيه عبـاه



« فلما فرغ الزير من كلامه غاب عن الوجود وكانت ضباع لما سمعت كلام أخيها صار الضيا ظلاما فى عينيها ، ثم جـاءت بصندوق كبير فوضعت فيه سالم الزير ، وزفتته وطلته بالقار . وكان عندها عبدان فأمرتهما أن يحملا الصـندوق ويلقياه فى البحر ، فحملاه وسارت هى معهما تحت جنح الظلام الى أن وصلا الى البحر فطرحاه فيه ، ثم رجعت ضباع وهى تبكى على أخيها

وتقول : يا ليتنى كنت فداك ، فقد أحرقت قلبى بفراقك يا جمل المحامل وفخر الأوائل » . وندبته ضباع بقولها :

تنول ضباع من قلب حــزين	أيا عينى فزيدى من بكاها ..
فحطيتــه بصــندوق مقفــل	ومن بنى مرة ما يعلم حــداها
وقلت له روح يا جمل المحامل	أيا عامود بيتى انحنــاها ..
وهذا صار فى عصر الجليلة	اله العرش يعــدمها صباها
فسر يا ريح واخبــر اليمامة	لتصــبح ثم تمسى فى بكاها

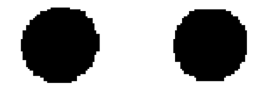


وهكذا نجد أنفسنا ننتقل فى مأساة الزير سالم خطوة بخطوة مع مأساة أوزيريس . فالزير مثل أوزيريس لم يمكن قهــره الا حين أثملته الكأس (قارن المأدبة التى أقامها ست لأوزيريس فى نطاط ليغتاله بعد أن يثمل بالشراب) . والزير مثل أوزيريس مدد فى تابوت أو صندوق أحكم اغلاقه وألقى بين الأمواج . حتى اسم سلطان قاتل الزير فيه عناصر من ست ، ولعلهما يلتقيان فى اسم « ســوتر » Soter وهــو من أسماء زيوس الحسنى فى اليــونانية ويظن أنه مشتق من « ســونتر » Soneter المصرية القــديمة ومعناها الاله الأكبر (قارن أيضا ســوثيس Sothis

وهو نجم الشعرى أوسيريوس Sirios باليــونانية ، ويظن أن له صــلة اتيمولوجية بكلمة « شــيطان » Sathan, Satan) .
ومن الأسطورة العربية يعرف أن أسماء أو ضباع أخت الزير ألقت تابوت الزير فى النهر بناء على طلبه ، أما الأسطورة المصرية القديمة كما وردت فى بلوتارك وعامة النصوص القديمة فلا تنص على أن ايزيس هى التى ألقت تابوت أوزيريس أخاها فى مياه النيل . ويقول نص ملحمة « الزير سالم » أن أسماء أو ضباع كتمت ما فعلت بأخيها ، أى أنها ألقته فى النهر ، وأشاعت أنها أحرقته بالنار « وأخذت منه بالثأر » لأنه قتل ولدها شــيبان أو شومان والمفهوم ضمنا أنها فعلت ذلك خوفا على حياتها من بطش جساس وهو عين الشعور الذى استولى على ايزيس بعد مقتل أوزيريس ، فقد كانت تخاف من بطش ست . أما عدى ، أخو الزير ، فقد كان أكثر أخوته حزنا على الزير ، وقد رثاه بقوله:

أيا ويلى فدمــع العــــين هـــلا
على الخدين من دمعى صــبابه ..
ألا يا اخـــوتى مــاذا نســوى
وأين نروح من هــذى العصــابه
تعـــــال أخى أبا ذراعــين قوللى
فقلبى والحشــــايا أمـــير ذابه
أيا طــراف يا ناصــر تعــــالوا
أيا عــزوز يا منيـــة شــــبابه

ويا حنبـل ويا باقى الأمـــاره
تعالوا واسمعوا منى الخطـــابه..
ونحن اخــوته خمسون بعـــده
بيد الخصم فى يوم الحرابه .. الخ



ومن هذه المرثية نعرف أن الزير كان له خمسون من الاخوة، منهم أبو ذراعين أو درعان أو دريعان كما ورد فى بعض النصوص وطراف وناصر وعزوز وحنبل ، وهو ما يقربنا من أســطورة « الضارعات » الشهيرة Supplices التى جعلت للملك ايجيبتوس Aegyptus (أى ملك مصر) خمسون ولدا أرادوا أن يغتصبوا أو على الأصح أن يتزوجوا بالاكراه بنات داناووس Danaus الخمسين فهربن ولجأن الى ملك أرجوس Argos طلبا للحماية فحماهن من أبناء ايجيبتوس المطاردين لهن . كل هذه الأسماء تهمنا فى دراسة الأساطير المقارنة لأن للباترونيميات أهمية قصوى فى تحديد مسار الأسطورة ومنشئها .

• •

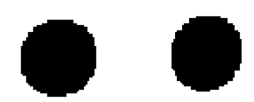
ومما هو جدير بالذكر أن « سلطان » حين فاخر أمام جساس بقتله الزير ، وكان جساس لا يعلم لاشتغاله بالصيد والقنص ، ذكر بعض التفاصيل التى ثبت أن النص العربى يعتمد مباشرة على نص قديم غير النص اليونانى الشهير ، نص بلورتاك فى « ايزيس وأوزيريس » De Iside et Osiride فهو يقول :

والمهلهل ناصب الخيمة بعيد ... فى وسط بستان يخصه ياحبيب
وحده يسكر بليله والنهـــار ... رحت أنا اليه من بعد المغيب
فى ثلاثة آلاف فارس غانمين ... كل فارس مثل سبع ومثل ديب
وهجمت عليه حالا بالعجــل ... ووقعنا عليه بضرب عجيب ..
ثم أخذته الى أختـــه ضباع ... لتأخـــذ تار ولدها الحبيب
أشعلت نار لتحـــرقه بهـــا ... وألقته على جمرة نار اللهيب..

• •

والاشارة الى « بستان الزير » لا شك امتـــداد « لحديقة أوزيريس» The Garden of Osirs التى حدثنا علماء المصريات أنها

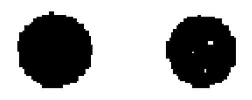
كانت عبارة عن قصرية أو زهرية يزرع الكهنة فيها البذور أيام الاحتفال بطقوس تمزيق أوزيريس فى أبيدوس أى العرابة المدفونة، وحين يخضر النبت فى اليوم الثالث يحتفل الكهنة بقيام الاله أوزيريس من الأموات ويكون يوم العيد . وهى نفس « حديقة أدونيس » The Garden of Adonis التى حدثنا عنها السير جيمس فريز Sir James Frazer فى كتابه « الغصن الذهبى » TheGolden Bough المعروفة ببابل وأشور أى فى العراق والشام « وحديقة أتيس » Attis الأناضول . وهذا يوحى بأن المعروفة فى « عدى » أخو الزير ليس الا أدونيس أو أتيس الوجه الآخر لأوزيريس كما كان يعرف فى الشرق القديم ، وربما كان صيغة من أتون (عدن) وهو اله الشمس الغاربة ، فاصرار النص العربى على أن مقتل الزير تم ليلا ، يوحى بأن له دلالة خاصة . أما الثلاثة الآلاف فارس الذين هاجم بهم الأمير سلطان الزير وهو سكران فى بستانه ، فيقابلهم آلهة وادى النيل الاثنين والسبعين الذين دعاهم ست الى المأدبة الفظيعة ليشاهدوا مصرع أوزيريس .



وبعد مقتل الزير سالم حكم جساس بنى قيس ودانت له رقاب العباد وأشاع العسف فى البلاد كما حكم ست من قبله

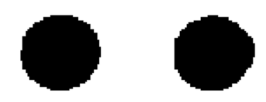
ديار مصر بعد مقتل أوزيريس وأشاع فيها الذل والخراب .
« وأما الزير سالم الأسد الجسور ، فانه لما ألقته أخته فى البحر كما سبق ، فقذفته الأمواج الى أن ساقته المقادير الى مدينة بيروت وكان اسمها الخيرية ، وملكها يدعى حكمون بن عزرا ، وكان من أجل الملوك قدرا . واتفق بالأمر المقدر أن ثمانية من الصيادين بينما يصطادون السمك نظروا الى ذلك الصندوق تتلاطم به الأمواج ، فقال أحدهم لرفيقه : انظر يا صمويل هذا صندوق يا رؤيل قد ساقه الينا اله اسرائيل . ثم انهم قصدوه فى الحال وسحبوه الى الشاطىء بالحبال ، وذلك بعد تعب ونكد ما عليه من مزيد . فقال رئيس الشختور لباقى الأعوان تعالوا حتى نقسمه علينا الآن قبل أن نفتحه يا اخوان ، فنأخذ كل واحد حقه على قدر ما يستحقه ، فأجابه بعض الرجال : ما هو مرادك بهذا المقال ؟ فقال : ان لى النصف ولكم الآخر لأنى صاحب الشختور والرئيس الأكبر . فقال : وحق خمار العذير ، ما تنال منه شيئا يا شبير ، ثم وقع بينهم الخصام .. ولم يسلم سوى رجل واحد . واتفق بالأمر المقدر أن حكمون كان قد خرج مع أكابر دولته للصيد والقنص ، فمر من ذلك المكان فوجد الصندوق وذلك الرجل والقتلى مطروحين على الأرض ، فوقف وسأل الصياد عن السبب فأخبره بواقعة الحال . فتأمل الملك فى الصندوق فتعجب من كبره وثقله ، وأراد أن يعرف ما فيه ، فأمر بحمله الى السرايا .. فلما صار هناك أمر بفتحه ففتحوه ، واذا رجل طويل القامة عريض الهامة واسع المنكبين

كبير القدمين مثخن بالجراح من ضرب السيوف وطعن الرماح ، وقال الملك لحواشيه : ماذا وجدتم فيه ؟ قالوا : يا ملك الزمان ، فيه انسان كأنه من عفاريت السيد سليمان ، له عيون كعيون السباع ، فلما نظر الملك خاف وارتاع » ..



وهذه بعينها رحلة أوزيريس كما وردت فى بلوتارك وسواه . فقد قال بلوتارك ان صندوق أوزيريس بعد أن ألقته ايزيس فى النيل طفا على الأمواج حتى بلغ البحر المالح ثم حملته أمواج البحر المالح الى فينيقيا (لبنــــان) حيث رسا على شــــاطىء بلوس Byblos ، وهى جبيلة شمالى بيروت ، وهناك انتشله الصيادون وحملوه الى ملك فينيقيا ، وكان اســمه ملكارت Melqarte وملكتهـــا وكان اسمها عشتروت ، وهى ربة الخصب أو ايزيس الفينيقيين . وكان الصندوق وهو على الشاطىء قد نبتت حوله واحتوته شجرة جسيمة سامقة ، فأعجب بها ملكارت وعشتروت فأمروا بأن تقطع وتنقل الى صحن قصرهما ليقــوم فيه عمود يرتكز عليه سقف القصر . وكانت ايزيس تبحث فى مصر دون جدوى عن جثمان أخيها أوزيريس وتبكى موته كل عام بدموع غزار فيكون منها فيضان النيل . ثم دلتها جماعة

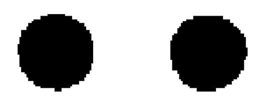
من الصبية على ما كان من أمر الصندوق فحضرت الى ببلوس ودخلت القصر الملكى متنكرة فى زى مرضع أو مربية ، فعهدت اليها عشتروت بتربية ولدها الصغير . وكانت ايزيس تتخذ شكل النسر وترفرف حول عمود أوزيريس ، فحملت منه بالسر الالهى طفلها حوريس ، الذى قدر له أن يكون الابن المنتقم لأبيه . وذات يوم فاجأت الملكة عشتروت ايزيس وهى توشك أن تحرق طفل عشتروت ، فجزعت جزعا شديدا ، ولم تجد ايزيس مفرا من الكشف لها عن حقيقتها ليعود الى قلبها السكون . عرفتها بأنها ايزيس ربة مصر وأنها انما قصدت احراق وليد عشتروت لينال بالنار الخلود . وعرفتها بأن أخاها وزوجها أوزيريس راقد فى التابوت داخل الشجرة وأنها ما جاءت الا لتكون الى جواره. وفرحت عشتروت فرحا عظيما وردت الى ايزيس أخاها وزوجها لتعود به الى بلادها . فحملت التابوت فى زورق عاد بهما الى مصر ، وفى الطريق فتحت ايزيس التابوت ورقدت على جثمان أوزيريس وقبلته فنفخت بأنفاسـها أنفاس الحيـاة فيه فبعث من جديد .



وبغض النظر عن تطابق رواية الزير مع رواية أوزيريس ، مع اختلاف الأسماء ، نجد بعض الموتيفات التفصيلية متواترة

فى الروايتين . فمثلا فى رثاء أسماء (ضباع) لأخيها الزير سالم نجدها تصفه بقولها « أيا عامود بيتى » ، وهذا يذكرنا باقامة شجرة أوزيريس عمودا وسط قصر عشتروت . ثم ان اصرار ملحمة « الزير سالم » على موتيفة احراق أسماء (ضباع) لجثة أوزيريس ، سواء فى روايتها أو فى رواية سلطان ، تحمل بقايا من قصة احراق ايزيس لطفل الملكة عشتروت . أما حكاية حمل ايزيس منأوزيريس بالسر الالهى فلا ذكر لها فى الملحمة العربية. ولكن هناك بقايا من قصة عودة أوزيريس الى الحياة ، لا بأنفاس ايزيس ، ولكن بتدخل الطب البشرى لأن عصر المعجزات كان قد انتهى ، ففى الملحمة أن الزير سالم بعث الى الحياة فى قصر الملك حكمون ، وليس على أمواج البحر المالح : « وكان عند الملك حكمون طبيب ماهر اسمه شمعون ، فتقدم الى الزير وهو مطروح فجس زلقومه وعرق الروح فوجده يختلج فى أعضائه ، فقال للملك ان الرجل فى قيد الحياة . فقال له : هل تقدر تشفيه وأنا أعطيك ما تشتهيه ؟ قال : نعم يا مولاى وأخذ اسفنجة وبلها بالماء الخارج ومسح الجروح ووضع المرهم على القروح ، ثم جاء بعسل النحل فغلاه وفتح فمه وسقاه .. الخ » وفى الملحمة أن الزير بعد شفائه أو بعثه زعم للملك حكمون أن اسمه « الموحد » قائلا : « أنا عبد الاله العظيم رب موسى وابراهيم »

أى بعبارة أخرى أن كل هذه الأحداث جرت قبل ظهور المسيح ومحمد ، ونحن فى فترة الانتقال من وثنية القدماء والتوحيد اليهـــودى .



والنص العربى يذكر اسم عشتروت ، ولكنه يجعلها ابنة الملك حكمون بن عزرا لا زوجته كما فى بلوتارك حيث نجـــد عشتروت زوجة ملكارت . وفى الملحمة أن اسمها « اســـتير » (قارن استارتيه Astarte وعشتروت Ashtaroth وعشتار Ishtar وهى افروديت Aphrodite اليونانية وفينوس Venus الرومانية وازيس Isis المصرية التى كانوا يسمونها عست أو عشت أو عزت، فايزيس صيغة يونانية ، وهى ربة الاخصـــاب (العشمار) فى مصر القديمة :

قال أبو استير حكمون الملك   يا موحد استمع منى المقال

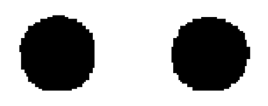
(قارن Stella و Astra باللاتينيـــــة ، وكلاهما تعنى « نجم ») .

ويبدو أن قصة الحمل بالسر الالهى الواردة عن ايزيس فى طوافها حول العمود ـــ الشـــجرة فى ببلوس ـــ بيروت قد اتخذت فى الأسطورة العربية شكلا زوومورفيا آخر . فنحن نعلم أن الزير ســـالم وهو فى بيروت « كان قد انتخب له فرسا من أطايب الأفراس كانت طويلة العنق قصيرة الرأس وأجود من القميرة فرس جساس ، فاعتنى بتربيتها حتى حالت ، فأخذها الى شاطىء البحر وربطها هناك ، فخرج عليها حصان من البحـــر فشب عليها فراحت حامل ، وبعد عام ولدت مهر أدهم ، وكان كامل الأوصاف ململم فسماه الأخرج ، لخروج أبيه من البحر ، ثم فعل معها ذلك العمل فى الثانى فولدت له مهرا آخر كأنه الأبحر حصان عنتَر ، فسماه أبو حجلان .. واستمر على تلك الحال مدة أربع سنين وهو يطلب الفرج من رب العالمين » .



يبدو اذن أن الشكل الزوومورفى الذى اتخذته ايزيس ـــ أسماء فى الملحمة العربية كان صورة الفرس (وهو رمز جنسى) لا النسر أو الحدأة Aetos ، وحمل الفرس من حصان البحر، وهو حيوان خرافى ، فيه رواسب من معجزة الحمل المأثورة عن ايزيس . فاذا ذكرنا أن الجواد الأخرج ، أو الجواد أبو حجلان

وليد هذه المعجــزة سيكون له دور عظيم فى حــروب الزير واتنصاراته ، رجح لدينا افتراض أن تكون فرس الزير هى الصورة الزوومورفية التى تحولت اليها أخته أسماء أو ضباع. ولا شك أن اندثار عهد زواج الأخت باندثار العالم القديم ، وحلول تابو المحارم محله ، قد جعل من المستحيل على أدباء العالم الوسيط أن يســتمروا فى قبول فكرة الأخت الزوجــة (ايزيس بالنسبة لأوزيريس) ويفترضوها فى أســماء بالنسبة للزير ، حتى ولو كانت الأسطورة الأصلية تقول ذلك . وبالتالى فقد أبقوا على أسماء الأخت ورفضوا أسماء الزوجة ، وبقيت حكاية الفرس المعجزة أم المهر المعجز دلالة على تشبث الأسطورة الأصلية بالبقاء .



وفى سيرة الزير أثناء اقامته فى بيروت ، جملة موتيفات غير واردة فى سيرة أوزيريس أثناء اقامته فى ببلوس ، ولعلها كانت فى الأسطورة الأصلية ولكنها ضاعت فى الأسطورة كما عرفت عند اليونان ، أو لعلها اضافات فولكلورية جاءت فى العصر الهلينيستى أو ما بعده . ومن هذه الموتيفات أسر الزير مدة سنة و « خدمته » أربع ســنوات فى قصر الملك حكمون . ومنها

اشتغاله « سائسا » فى خدمة هذا الملك ، واهتمام الملحمة بابراز هذا المعنى ، ومنها اشتهاره بأنه كان أكولا يأكل طعام المسجونين. والنص يقول ان الزير حتى بعد خروجه من السجن واشتغاله سائسا فى قصر الملك حكمون بن عزرا كان بمثابة الأسير عند بنى اسرائيل . ففى الملحمة المصرية أن الملك حكمون بن عزرا عندما سأل الزير سالم أول الأمر عن هويته ، أجاب الزير « كنا سياس عند الملوك ، وكنت أنا المقدم على الجميع فحسدونى وضربونى ذات يوم بقصد أن يقتلونى ، فغبت عن الوجود من ألم الضرب ولم أر نفسى الا فى هذا المكان » . ثم ان الزير عاد فغير روايته قائلا انه فى الأصل ملك وابن ملك ، ولكنه اشتغل بسياسة الخيل حين غدر به الدهر ، وان جراحه كانت من عض الحصان .

قال أبو ليلى المهلهل فى قصيده

يا ملك حكمون يا حلو الخصال
فى بلادى ان سألت عن الجلوس
مجلسى فى الوسط فى أعلى الجبال
وان سألت عن الشور كل الشور لى
ما أحد يقدر يخالف لى مقال
وان وقع الحرب وضرب السيوف
فالعذارى هللت فوق الجمال
والفتى المعروف منجد يا أمير
ابن وائل ذاك لى يا أمير خال

ان كنت تسأل يا ملك عن صنعتى
صنعتى حاصود فى روس الرجـال

أما أبى فكان ذو قـدر عظيـم
مال فيه الدهـر يا حكمون مـال

صار سايس بعـد عزه للخيـول
بالكرامـة بعـد عـزه والدلال

وأنا قـد صرت سـايس بعـده
وأسوس الخيـل ما مثلى مثـال

وجروحاتى هى من عض الحصـان
قد ضربنى برجـله أربع نعـال

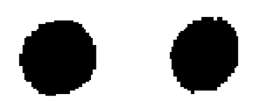
قمت من كدرى ضربته فى حشـاه
راحت السـكين تلعب للغـزال

لأجل ذاك المهر سوى ها الفعـال
وارتميت بالـذل مع كتر الخيـال



أما رواية الزير بأنه كان رابع أربعة سياس ، وانه كان أفضلهم فحسدوه ومزقوه ، فيمكن ربطها بما جاء فى قصـة اوزيريس عند بلوتارك والقدماء بأن اوزيريس كان أحد أربعة

آلهة اخوة ولدوا خارج الزمن (فى أيام النسىء) ، وهم الزوجان ايزيس وأوزيريس والزوجان نفثيس وست ، وان مصرع اوزيريس كان بسبب حسد ست الشرير له لأنه كان الها جميلا ومفطورا على الخير . أما اختيار مهنة سياسة الخيل بالذات فهى تحتاج الى مزيد من التأمل والبحث . وأما رواية الزير الثانية ، بالاضافة الى ما جاء من خروج حصان البحر ليثب على فرس الزير فى بيلوس ، تنقلنا على الفور الى الجو الذى انتهت به مأساة هيبوليت بن ثيسيوس الذى آثر الصيد والطراد على العشق والغرام فغضبت عليه افروديت ربة الحب وانتقمت منه بأن جعلت فيدرا امرأة أبيه تدله فى حبه وتراوده عن نفسها ثم تنتحر حين تأبى عليه عفته أن يجيبها الى ما تطلب وينتهى أمره بالفرار من قصر أبيه فى مركبته ذات الجياد الجامحة ، وانطلاقه على الطريق الصخرى على الشاطىء ، حيث خرج عليه وحش البحر وحطم مركبته وجياده وهكذا لقى حتفه. وهى قصة نسيجها من نسيج قصة الأخوين فى مصر القديمة وقصة يوسف وزليخة فى الآداب السامية .



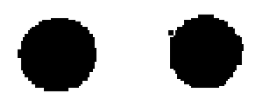
وقد سلم الملك حكمون الى الزير اصطبل القصر « فكان يسوس الخيل أحسن سياسة » . ولكنه كان يعيش فى اكتئاب

متصل : « وكان كثيرا ما ينفرد بنفسه ويتذكر أهله وعشيرته وما هو فيه من الاهانة والأسر ، ويبكى ويقول : يا ليت شعرى ما جرى على أهلى من بعدى » ، « فانه بعد ذلك العز والاحترام وعلو الجاه ورفعة المقام ، وقع فى أسر بنى اسرائيل ، فكان الموت أهون عليه من هذا القبيل » ولكن الزير صبر الى أن يأذن الله بخلاصه من الأسر ، وكانت بشائر هذا الخلاص مولد المهر المعجزة « الأخرج » ثم مولد المهر المعجزة « أبو حجلان » .



فأسر الزير عند بنى اسرائيل فى عهد الملك حكمون ، وتركيز الملحمة المصرية على اشتغاله بسياسة الخيل ، مع كل هذه الوشائج الواضحة مع قصة اوزيريس ، يوحى بأن هناك فسادا فولكلوريا فى النص نشأ من اختلاط الألفاظ والمعانى ، وأن الأصل فى الأسطورة هو أن اله الخصب المصرى اوزيريس وقع أسيرا فى يد الهكسوس ، (أو حكاخاسوت كما كانوا يسمون فى مصر القديمة) ، الذين كانت صناعتهم تربية الخيل والحرب بالخيل ، فالهكسوس هم الذين أدخلوا الحصان فى مصر ، والمعروف أنهم لم يتمكنوا من غزوها الا بفضل سلاحهم الجديد وهو العجلة الحربية التى تجرها الجياد ، وأن اسم حكمون ليس الا ملك

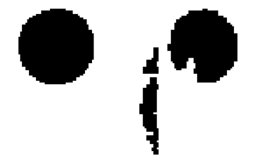
الحكاخاسوت هؤلاء ، أما كلمة « سوس » فى كلمة « هكسوس » فمعناها فى اللغات الهندية الأوروبية « الحصان » ومنها (ساس يسوس سياسة فهو سائس من العربية) . وبهذا تكون مأساة اله الخصب المصرى اوزيريس قد اختلطت بمأساة استيلاء الهكسوس على مصر ، وتكون رحلة تابوت اوزيريس الممزق الى ببلوس فى شواطىء فينيقيا وأسره هناك ليست الا وجها من وجوه هذه المأساة السياسية التى ترسبت فى وجدان المصريين حتى صارت الى مأساة كونية أجهز فيها ست اله القحل والمحل كما يقول هيرودوت وبلوتارك على اوزير اله الخير والخصب . ومعنى هذا أن أسطورة الاله المعذب فى مصر القديمة قد أعاد المصريون صياغتها فى تاريخ باكر لتتجاوز مضمونها الحيوى المألوف الخاص بالخصب والاخصاب فى عالم النبات والحيوان الى مضمون سياسى جديد يصور بتمزيق اوزيريس بيد ست مصرع مصر تحت سنابك خيل الهكسوس . ومع ذلك فهذا مجرد اجتهاد ففى اعتقادى أن نص « الزير سالم » فى هذه المرحلة يحتاج الى مزيد من البحث والتحقيق .



فنص الملحمة فى هذه المرحلة فاسد فسادا فولكلوريا شديدا. لأننا سرعان ما نرى الزير سالم يدخل فى حرب مع الصليبيين

وعلى رأسهم « برجيس الصليبى » ، واسمه الكامل « برجيس ابن ميخائيل » ومعه أخوه سمعان ، وقائده واسمه «فرنسيس»، وان كان اسم « فرنسيس » لا يرد فى المكتبة الملوكية . ويبدو أنه ليس مقحما على نص مكتبة الجمهورية العربية القائل : « ان الملك برجيس سلم الكتاب الى قائد اسمه فرنسيس » ، فالتزام الملحمة بالنثر المسجوع يوحى بأن اسم « فرنسيس » أو أى اسم آخر مقفى عليه أصيل فى الجملة ، وأهمية ذكر اسم فرنسيس يدخلنا فى عالم « الفرنجة » Les Francs الذين كان لهم دور كبير فى الحروب الصليبية ، ولكن استعمال صيغة « الفرنسيس » بدلا من « الفرنجة » ، وهى الصيغة العربية الوسيطة ، يوحى بأن الناسخ متأخر ، ربما من القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر ، وأنه ربما عبث بالنص . أما الملك برجيس ، فتقول ملحمة « الزير سالم » عنه : « اتفق فى تلك الأيام أن الصليبى أحد ملوك الأروام خارج مع أخيه سمعان فى مائتى ألف عنان من بلاد كسروان » ، وفى نص المطبعة الملوكية لا ذكر لسمعان فى هذه المرحلة : « واتفق فى تلك الأيام أن برجيس الصليبى أحد ملوك الروم خرج مع أخيه فى مائتى ألف عنان من بلاد كسرون » . واعتمادا على الدليل الداخلى نستطيع أن نستنتج أن نص المطبعة الملوكية مشوه لأن « الأيام » لا سجع لها ، كما أن « كسرون » لا تسجع مع « عنان » . واذا كان نص مطبعة الجمهورية العربية هو النص الأنقى ، وهو الذى يذكر اسم القائد فرنسيس مع الملك برجيس ، فربما ساعدنا هذا

على اثبات تاريخ نسخ هذه الطبعة بزمن لاحق على دخول كلمة « فرنسيس » اللغة العربية .



وأيا كان الأمر فالفانتازيا الملحمية قد خلقت لنا اشكالا تاريخيا يصعب الخروج منه ، لأنها جعلت الحرب تدور بين الروم (أو ربما تقصد الملحمة روما فقد كان الخلط شائعا) ومملكة يهوذا وعلى رأسها الملك حكمون « ملك اليهود » . وهذا ممكن تاريخيا اذا حصرنا فترة هذه الحرب فى العصور التى تناولها المؤرخ اليهودى الكبير جوزيفوس Flavius Josephus (ولد فى ٣٧ أو ٣٨ ميلادية) . واوسابيوس Eusebius (ولد ٢٦٠ و ٣٤٠) أى فى عصر « الحروب اليهودية » التى يحدثنا عنها جوزيفوس فى كتابه تاريخ « الحروب اليهودية » De Bello Judaico و « الآثار اليهودية » Antiquitates Judaice وقد كانت هذه الحروب فى القرون القليلة السابقة للمسيح ، قبل أن يخرب الرومان نهائيا دولة يهوذا . أو لعله أيضا ممكن اذا ركزنا على فترة الصراعات بين مملكة يهوذا والامبراطورية الرومانية قبل عصر اوسابيوس صاحب « تاريخ الكنيسة » و « سيرة قسطنطين » .

• •

ومع ذلك فلنحاول أن نسرد الوقائع كما روتها الملحمة أولا ثم نحاول أن تتعقب بعض الأسماء القليلة فى ضــوء معلوماتنا التاريخية لعلها تهدينا الى بعض النتائج .

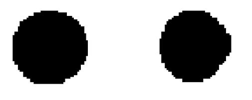
• •

ففى « الزير سالم » أن الملك برجيس الصليبى وأخــاه القائد سمعان خرجا فى جيش جرار من « بلاد كسروان » وتلك الحدود لمحاربة حكمون « اليهودى » الذى كانت حاضرة ملكه مدينة بيروت بناء على ما ذكره « رواة الأخبار وعظماء الأعصار ». أما الانذار الذى وجهه الملك برجيس بن ميخائيل الى حكمون ملك بنى اسرائيل ، فهو أنه خرق معاهدة بموجبها تعهــد حكمون أن يدفع لبرجيس خراجا محــددا فكف عن ارسال الخراج خمسة أعوام بما استوجب تأديبه « وجعلنــا الولايات اليهودية تابعة للأقاليم المسيحية » اذا لم يبادر حكمون بارسال

الخراج وهو مساو لعشر ماله . ولكن يفهم من سياق النص ضمنا أننا فى فترة تاريخية كانت فيها مملكة يهوذا تابعة بالفعل اما للروم واما للرومان ، أو على الأقل تتعهد لهؤلاء أو لأولئك بدفع الجزية المحددة فى الملحمة بعشر المال وعشر الخيل وعشر النساء بحسب ما جاء فى انذار برجيس الصليبى :

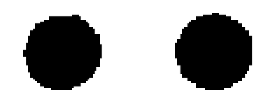
أريد المـال أرسله سريعـا   وان لم يمتثل أمـرى فيردى

وعشر الخيل مع عشر العذارى   بنات قد زهوا وجهـا وقدا



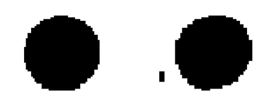
هذه الرسالة أرسلها الملك برجيس الى الملك حكمون مع قائده فرنسيس . فلما قرأها حكمون ثار واستنفر قومه للقتال، وفى مقدمتهم أخوه « صهيون » ووزيره « قسمون » . وقد عسكرت « العساكر المسيحية » فى « الاشرافية » («الاشراقية» فى طبعة المكتبة الملوكية) . والتحم الجمعان وانجلت المعركة عن أن « الأمة العيسوية قد فتكت بالعصبة العبرانية » ، واعتصم حكمون فى عاصمته أى فى بيروت فحاصر برجيس المدينة ، وهنا يدخل الزير سالم فى صورة المنقـذ لبنى اسرائيل من بطش الصليبيين رغم أنه كان أسيرا فى دولة يهوذا . وقد استبدت به

رغبته فى القتال وتحرك فيه المحارب القديم ، فكان يركب سور المدينة أو سور القصر وكأنه يركب جوادا ويشحذ من همم اليهود ليصدوا جيش الصليبيين .



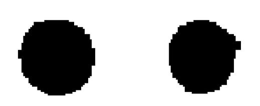
« وكان لحكمون بنت كالقمر اسمها استير » رأت حماسة الزير وفروسيته ومظاهرته لبنى اسرائيل فأطلعت أباها الملك على ما رأت .

تقول ستير اسمع من كلامى   نظرت اليوم فى عينى العجائب
نظرت اليوم من هذا الموحد   فعالا قد تعيد الرأس شايب ..
يريد الحيط يطلع فيه يغزى   وقلبــه للقــاء الحرب طالب



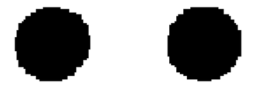
فلما عرف حكمون بذلك تعجب وقرر أن يختبر فروسيته وولاءه ، ووعده بتحريره من أسره ان هو استطاع أن يهــزم الصليبيين . فخرج الزير على ظهر حصانه الأخرج ونزل الى

المعمعة فمزق صفوف الصليبيين ورد الأمل الى نفوس اليهود المندحرين ، فاذا الحرب سجال بين الفريقين . وبعد أن سقط سمعان أخو برجيس وصهيون أخو حكمون فى المعركة ونزف الفريقان بغزارة ، اتفقا على المصالحة فارتد برجيس الى بلاده ورضى حكمون أن يدفع الجزية .

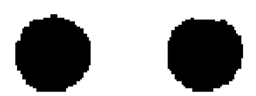


وأكرم الملك حكمون الزير سالم كل الاكرام على ما أظهر من بطولة وولاء فمنحه لقب الامارة ووعده بأن يجيب أى أمنية يرجوها فطلب منه الزير السيف والدرع والمهر الأخرج وطلب أن يأذن له فى العودة الى أهله وعشيرته ، فجهز له الملك حكمون سفينة حملته الى مدينة حيفا ، ومن هذه المدينة سار الزير سالم وحده الى « مرج بنى عامر » وهو محل اقامته كما تقول الملحمة وفى حيفا التقى الزير سالم بطراف بن ناصر وهو « حافى وعريان » بعد العزة والامارة . ولم يشأ الزير سالم أن يقصد الى مرابع قومه حتى يزور حى بنى مرة ليعلم من من رجال تغلب انضم الى جساس وبنى بكر . لقد عاد الزير بعد غيبة طويلة ليستوفى دين كليب كاملا . وقد رأى أن غيبته الطويلة قد قلبت الموازين

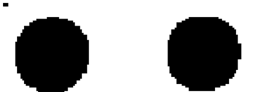
فأنزلت بقومه الدمار ورفعت رايات جساس بن مرة . وكان أول من التقى به الزير فى أحياء بنى مرة « الأمير سالم المهيا » .



هذه هى خلاصة الوقائع فى وقائع الزير سالم مع برجيس الصليبى وانتصاره لحكمون ملك اليهود .



فلننظر الآن الى الأسماء ان كان يمكن أن تعيننا على تحقيق بعض وجوه هذه الحلقة الغريبة فى سيرة الزير سالم .



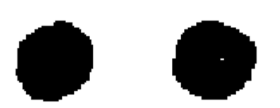
هناك أولا « استير » بنت الملك حكمون . وما دام النص يقول ان الملك حكمون كان يحكم فى بيروت ثم يروى رحلة

تابوت الزير الى بيروت منسوجة بخيوط تشبه رحلة تابوت اوزيرالى ببلوس فى بلوتارك وسواه ، فنحن اذن فى فينيقيا أو على الأقل فى حضارة بابل وأشور التى قامت على أنقاضها مملكة يهوذا فى القرون القليلة السابقة على ميلاد المسيح . وليس افتعالا أن نلتمس فى « الملك » حكمون شخصية « ملكارت » أو فى استير شخصية « عشتروت » أو « عشتار » . هذا من الناحية الأسطورية . أما من الناحية التاريخية التى قد تكون قد خالطتها بعض العناصر الأسطورية ، فنحن نعلم أن استير كانت شخصية تاريخية أو شبه تاريخية تقول عنها أخبار العبرانيين أنها أنقذت الشعب اليهودى من الدمار . فقد كانت استير اليهودية زوجة كسرى Xerxes ملك الفرس الذى يعرف أيضا باسم ارطاجزركسيس Artaxerxes ، وهو دارا الأول الذى كان يعرفه العبرانيون باسم احشويروس Ahasverus أو أنوشروان كما نقول نحن فى العربية . باختصار : كانت استير زوجة يهودية لكسرى أنوشروان المعروف بدارا الأول ، وقد حكم بلاد فارس عام ٥٠٨ ق.م.



وكان لكسرى أنو شروان وزير اسمه امان Aman يمقت اليهود ويبيت لهم الابادة الشاملة ، ولكن استير استطاعت أن

تشفع عند زوجها كسرى فى بنى قومها فعفا عنهم وشنق الوزير امان . والملحمة تحدثنا عن برجيس أنه خرج فى جيش عرمرم « من بلاد كسرون أو تلك الحدود لمحاربة ملك اليهود » (نص المكتبة الملوكية) أو من « بلاد كسروان وتلك الحدود لمحاربة حكمون اليهودى » (نص مكتبة الجمهـورية العربيـة) . أفلا يجوز لنا أن نستخلص أن بلاد كسروان هذه ليست سوى بلاد فارس ، وفى هذه الحالة يكون العصر الذى دارت فيه الأحداث نحو عام ٥٠٠ ق.م. وما بعـدها من قرون هيللينية وهللينستية ورومانية وبيزنطية وهو عصر ذلك الصراع الرهيب الذى دار بين الفرس والبارثيين من جهة والروم والرومان من جهة أخرى ابتداء من القرن الخامس ق.م. حتى ظهور دولة العرب للسيطرة على ما بينهما من أمصار ولا سيما منطقة الشام التى ظلت قرونا ميدان صراع دام بين الفرس والبارثيين وبين الروم والرومان .

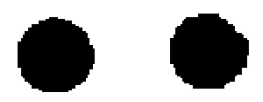


فاذا كانت الأسماء تهدينا الى شيء ، فهى تهدينا الى مزيد من التحديد للفترة التاريخية التى جرت فيها هذه الوقائع فى ملحمة « الزير سالم » . فالملك حكمون بن عزرا ملك يهودي له

وجود تاريخى فبعد انهيار مملكة اسرائيل وسقوط عاصمتها أورشليم (القدس) فى يد الأشوريين عام ٧٢٢ ق.م. ثم انهيار مملكة يهوذا وسقوط أورشليم فى يد البابليين عام ٨٥٦ ق.م. سادت تاريخ اليهود فترة غامضة كان أهم ما فيها الانتقال من نظام الحكم الملكى الى نظام حكم الكهنة ، وكان عزرا هو مؤلسس هذا النظام الجديد حيث الكاهن يحكم بسلطات الملك » وبذلك انتقل الشعب اليهودى من نظام الدولة السياسية الى نظام الدولة الدينية أو الثيوقراطية ، وقد ساعد هذا اليهود رغم ضعفهم السياسى على بلورة كيانهم الدينى وتنظيم معتقداتهم وشرائعهم الخاصة فى عالم اجتاحه اليونان واصطبغ بالصبغة الهللينستية ، وكانت هذه أهم ثمرة للتقاليد التى أرساها الكاهن الملك عزرا . وقد دخل الاسكندر الأكبر أورشليم عام ٣٣٢ ق.م. دون مقاومة ، ثم سقطت أورشليم مرة أخرى فى يد بطليموس الذى غزاها من مصر عام ٣٢٠ ق.م. ثم سرعان ما بدأ التطاحن بين خلفاء الاسكندر الأكبر البطالمة Ptolemies فى مصر والسلوقيين Seleucids فى بابل ، وسوريا وكانت الشام وفلسطين ومملكة يهوذا (اليهودية Judaea) وآسيا الصغرى هى أرض المعركة المستمرة بين بيت بطليموس وبيت سليوكوس المقدونى ، منذ تأسيس دولة السلوقيين فى ٣١٢ ق.م. حتى نهاية عهد سليوكوس الرابع فى ١٧٥ ق.م. وكانت أورشليم طوال هذه الفترة من الضعف السياسى تتبادل بالتناوب بين هؤلاء وأولئك ، حتى ظهرت فيها حركة مقاومة فعالة بقيادة أسرة المكابيين Maccabes

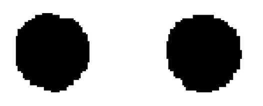
الذين عرفوا أيضا باسم بيت حكمون أو هشمون أو هسمون Haschmon وقد ورد اســـم حكمون في « الآثار اليهودية » للمؤرخ جوزيفوس Hasmonaeus هسمونايوس . وقد كان بيت حكمون أو مكابيوس هذا يضم خمسة أخوة اشـــتهر منهم : يهوذا المكابي Judas Maccabaeus الذي استرد أورشـــليم من السلوقيين (قواد الملك أنطيوكوس أي أنطاكي) وحكمها ، وكان ذلك في زمن ثورة البارثيين Parthians في عهد ميثريدات الأول Mithridates (١٧٠ ــ ١٣٨ ق.م.) على السلوقيين . والأخ الثاني هو يوناثان Jonathan الذي خلف يهوذا بعد قتله كاهنا ملكا على أورشليم في ١٥٢ ق.م. وقد دمر يوناثان جيش ديمتريوس ملك سوريا من قبل السلوقيين وبلغت فتوحاته حتى بيت الزور ويافا وغزة وعسقلان ، وكان يوناثان صديقا للقائد طريفو Trypho الذي خلــع ديمتريوس الثـــاني ونصب مكانه أنطاكي السادس ملكا على سوريا في ١٤٥ ق.م. ثم قتله وولى نفســـه ملكا على سوريا . أما الأخ الثالث ســـمعان أو شمعون Simon ، فقد ناصر ديمتريوس الثاني المخلوع مقابل تنازله عن الجزية التي كان يدفعها ملك اليهود لملك سوريا ، وفي ١٤٢ ق.م. أعلن سمعان أو شمعون استقلال مملكة يهوذا استقلالا تاما عن دولة السلوقيين ، وهم الروم ورثة الاسكندر الأكبر الذين حكموا العراق وســـوريا من بعده كما حكم البطالسة مصر من بعـــده ، وبدأ اليهود يؤرخون وثائقهم منذ ذلك التاريخ بأنه « السنة الأولى لحكم سمعان الكاهن الأكبر ،

قائد اليهود وزعيمهم » . وقد قتل سمعان فى الدق قرب أريحا فى ١٣٥ ق.م. كما قتل اخوته من قبله . وبموت سمعان انتهى حكم بيت حكمون أو المكابيين الذين تميز حكمهم بالمجد العسكرى وباخراج مملكة يهوذا من عزلتها الدينية وتحويل هذه القومية الدينية الموحدة المنطوية على نفسها وسط العالم الهللينستى الى دولة قومية فيها من السياسة أكثر مما فيها من الدين ، مما جعل حزب « الحصيد هيم » Hasidhim وهو الحزب الدينى المحافظ يقف من بنى حكمون أو المكابيين الغزاة موقف العداء . وقد كانت مدة حكم بيت حكمون منذ بدءوا كجماعة تقود حرب العصابات الى أن انقرضوا ستة وعشرين عاما ، من ١٦٨ الى ١٤٢ ق.م. .



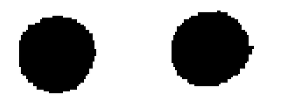
وبعد انتهاء عهد بيت حكمون ، مزقت دولة اليهود الانقسامات الداخلية . فحكمهم أولا يوحنا هيكارنوس الأول John Hycarnus (١٣٥ ــ ١٠٥ ق.م.) ابن سمعان بن حكمون، ثم حكمهم ابنا هيكارنوس : الأكبر وهو يهوذا أرسطوبولوس Judas Aristobulus ثم الأصغر وهو اسكندر يانايوس Alexander Jannaeus (١٠٣ ــ ٧٨ ق.م.) الذى تحالف مع بطالسة

مصر ، وقد خلفتــه زوجتــه الملكة الكســاندرا Alexandra (٧٦ ــ ٦٩ ق.م) التى عكست سياسته وبعد موتها اقتتل ابناها هيكارنوس الثانى وأرسطوبولوس على عرش يهوذا ، وحاصر هيكارنوس الثانى أخاه أرسطوبولوس فى أورشــليم مستعينا بالحارث Aretas ملك النبط ، وهو من ملوك العرب . وفى كل هذه الفترة كانت مملكة يهوذا تمزقها فلســفتان : فحزب الفريسيين Pharisees والصدوقيين Sadducees يدعوان لفصل الدين عن الدولة وفصــل منصب الكاهن الأكبر عن منصب الملك ، بينما كان حزب الحصيد هيم المحافظ يدعو لاقامة الدولة الدينية . وقد انتهى ضعف مملكة يهوذا باستيلاء الرومان عليها عام ٦٥ ق.م.



هذه هى الخلفيــة التاريخيــة التى تداخلت مع التسلسل الأسطورى فى ملحمة « الزير سالم » وقد تركت فى الملحمة بعض الرواسب كبعض الأسماء وبعض الوقائع . ففى زمن سمعان المكابى (حكمون) فى ١٣٩ ق.م. قوى تحدى ميثريدات الثانى Mithridates ملك بارثيا Parthia لملك ســوريا السلوقى حتى انه هزمه وأسره ، ولكن أنطاكى السابع Antiochus VII المسمى

سيديت Sidetes (١٣٨ ـــ ١٢٩ ق.م) وهو أخو ديمتريوس، هزم طريفو Trypho المنازع فى عرش ســوريا وحليف بيت حكمون فى مملكة يهوذا ، ومن ثم غزا مملكة يهــوذا مطالبا سمعان المكابى (حكمون) بأن يعود الى دفع الجزية التى كان ديمتريوس الثانى قد أعفاه منها ليشترى ولاءه فى صراعه مع طريفو على عرش سوريا . وبعد أن مات سمعان حكمون استمر يوحنا هيكار توس فى مقــاومة انطاكى الســابع الذى حاصر أورشليم ولكن هيكارنوس الأول عقد صلحا مع أنطاكى السابع عام ١٣٢ ق.م. وأصبح من حلفائه .



وهذه الوقائع التاريخية فى تاريخ اليهود أيام دولة حكمون مطابقة للوقائع الملحمية التى ترويها « الزير سالم » عن غزو برجيس ملك الروم لمدينة بيروت عاصمة الملك حكمون ، ومطالبته لحكمون بدفع الجزية والضرائب التى كان اليهود قد توقفوا عن دفعها للروم السلوقيين الذين كانوا يحكمون المنطقة من سوريا ، ثم ما كان من تصالح الفريقين . وفى « الزير سالم » أن حكمون قبل فى الصلح أن يعود لدفع الجزية لبرجيس ، وبهذا تم انسحابه . بل والتاريخ يقول ان هيكارنوس لما اصطلح

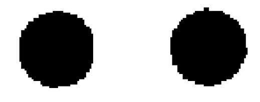
مع انطاكى السابع قدم فرقة يهوديةلتخدم فى جيش الملك السلوقى. أما ركوب الزير سالم السور أو الحائط ، وكأنه يركب جوادا ، لتحميس اليهود على القتال ، فربما كان منشؤه ما كان لحائط أورشليم وسورها من أهمية قصوى عبر التاريخ فتاريخ القدس سلسلة متصلة الحلقات من قصص حول تخريب هـذا السور أو هذا الحائط كلما غزيت مملكة يهوذا واعادة بنائه وتحصينه كلما ظهر فيها حاكم قوى .



وللعلماء اجتهادات متعددة فى معنى كلمة حكمون وأصل اشتقاقها ، فمنهم من يقول انها اشتقاق من كلمة معناها «الطارق» أى « الضارب بالمطرقة » ، ومنهم من يقول انها اشتقاق من كلمة معناها « المخفى نفسه » ، ومنهم من يربطها بعبارة تدل على مأساة أسرة تنتظر ظهور المخلص ، ومنهم من يقول انها اختزال لعبارة عبرية معناها « من من الأرباب يضاهيك يا الله » وهى عبارة قيل انهـا كانت مكتوبة على راية الملك يهوذا حكمون « المكابى » أكبر أخـوة المكابيين الذى جمع المقاومة اليهودية ضد الروم السلوقيين . قارن « الزير سالم » : « وعنـد اشراق الصباح استعد حكمون للحرب والكفاح فخرج من البـلاد

بالعساكر والعدد ، وحوله الكهنة والأحبار وهم يتلون التوراة والأسفار أملا بالفوز والانتصار ، وكان الملك برجيس قد ركب فى ذلك النهار بذلك الجيش الجرار وتقدم طالبا القلاع والأسوار بقوة واقتدار ، وعلى رأسه البيارق والصلبان ، ومن حوله القسوس والرهبان وهم يتلون الزبور والانجيل بالتنغيم والتهليل » . ومن العلماء من يرفض هذا التفسير ، ولكنه على كل حال يذكرنا بالجو الدينى المتوتر الذى دارت فيه أكثر معارك الشعب اليهودى مع جيرانهم ، ولا سيما مع الامبراطوريات الكبرى مثل الروم الهللينستيين ثم الرومان ثم روم بيزنطة ، وبالأخص ابتداء من القرن الثانى والأول قبل الميلاد ، الى حد أن الملك السلوقى أنطاكى الرابع الشهير بأنطاكى الأبيفانى Antiochus Epiphanus (١٧٥ — ١٦٤ ق.م) هدم أسوار أورشليم ودخلها عام ١٦٨ ق.م. وجعل معبد سليمان معبد لزيوس الأوليمبى Zeus Olympus وألغى الديانة اليهودية رسميا وفرض ديانة أثينا محلها وحرم اقامة الشعائر اليهودية وأحرق التوراة ودنس المعبد الأكبر بالبغايا ووضع خطة لابادة اليهود . وكان ذلك وقت بداية ظهور بيت حكمون أو بعده بسبع سنوات . كذلك بعد أن فتح بومبى Pompey أورشليم عام ٥٤ ق.م. بعيد انتهاء دولة حكمون ، أباد الرومان أكثر من ١٢٠٠٠ يهودى وذبحوا كهنتهم فى معابدهم . وفى ٥٤ ق.م. نهب القائد ماركوس كراسوس Marcus Crassus معبد سليمان، وبعد ذلك بعامين بيع ٣٥٠٠٠ يهودى بيع العبيد لأنهم اشتركوا

مع البارثيين فى قتال الرومان بقيادة كاسـيوس . ولم تعرف اليهودية سلاما الا فى عهد يوليوس قيصر .



ولكن كل هذه المذابح والحروب العوان على دولة اليهود كانت فى عهد الوثنية اليونانية (« الروم ») والوثنية الرومانية غالبا لأن اليهود لم يكتفوا بكيانهم كشيعة دينية موحـدة (لاحظ اهتمام «الزير سالم» بأن تكرر تسمية الزير «بالموحد») واتجهوا الى انشاء دولة قومية غايتها احياء ملك بنى اسرائيل أيام سليمان الحكيم . أما أباطرة روما الوثنيـة وقد ظلت الامبراطورية الرومانية وثنية حتى قسطنطين (٢٨٨ — ٣٣٧ ميلادية) ، فقد تراوحت سياستهم بين التسامح مع اليهـود والبطش بهم ، فقد حاصر تيتوس أورشليم عام ٧٠ ميلادية ثم خربها هادريان تماما عام ١٣٢ م وطرد منها اليهود . ولكنهم بوجه عام كانوا أحسن حالا من اتباع الدين الجديد ، وهو المسيحية، فى القرون الثلاثة الأولى لميلاد المسيح . فمن أين اذن جاءت فكرة المواجهة بين الملك حكمون والملك برجيس الصليبى ؟ .

• •

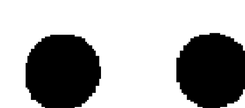
فحين جاءت الحـروب الصليبية أولا من بيزنطـة أيام نيسيفور فوكاس فى القرن العاشر ثم من أوروبا الغربية فى القرن الحادى عشر لم يكن لليهود دولة لا فى القدس ولا فى غـير القدس ، بل كانت القدس بصفة متصلة فى أيدى المسلمين منذ أن فتحها عمر بن الخطاب عام ٦٣٧ م ، فيما خلا اثنتى عشرة سنة أيام الحروب الصليبية حين انتقل حكمها الى أيدى الصليبيين: الأولى بين ١٢٢٩ و ١٢٣٩ والثانية عام ١٢٤٣ ــ ١٢٤٤ .

• •

من الواضح اذن أن ملحمة « الزير سالم » تشتمل على طبقات أسطورية وتاريخية شبيهة بالطبقات الجيولوجية ، فكلما تعاقبت العصور عدلها المؤلفون أو المترجمون أو المقتبسون بما يوافق حضارتهم وأضافوا اليها سمات تتمشى مع عصرهم ، ولكن كل هذه الاضافات لسوء حظ الأدب ولحسن حظ العلم

لم تطمس الطبقات القديمة السالفة المتراكمة عبر الأجيـــال . فالراوى الذى جدد الملحمة فجعل الملك برجيس غريم الملك حكمون ملكا صليبيا لاشك عاش بعد الحروب الصليبية التى دارت رحاها حول بيت المقدس . ولكنه لم يفطن الى ضرورة تجديد كل شخصيات الملحمة وأسمائها وأحداثها بما يتمشى مع عصر الحروب الصليبية ، فأعاننا بهذا القصور أو الاهمال على اكتشاف حقيقة هامة وهى أن النص الأصلى أو هذا الجزء من النص على الأقل ينتمى الى حقبة موغلة فى القدم ، لا تقل قدما عن القرن الأول قبل الميلاد أو القرن الأول الميلادى أيام أن كان بيت حكمون أو المكابيون يحكمون القدس ويحاربون الروم ثم الرومان . ومهما تأخر انشاء هـــذه الحلقـــة الأصلية من « الزير سالم » ، فلا أحسب أنها تدخل فى ذمة العالم الاسلامى، فما أحسب أن أحدا من كتاب صدر الاسلام كان ليهتم بتدوين جلائل الأعمال التى قام بها بيت حكمون اليهودى فى صراعه مع وثنية اليونان والرومان أو يهتم باسباغ كل هذا العطف على بيت حكمون . ولم يبق اذن الا أن نستخلص أن هذا الجزء من الملحمة على الأقل هو أصلا من الاسرائيليات وهو أصـــلا من انشاء فترة قريبة من فترة صراع اليهـــود مع الامبراطوريات الوثنية يونانية كانت أو رومانية . أما بيزنطة المسيحية وروما

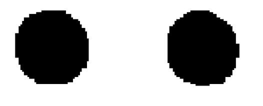
المسيحية فلم تدخل قط منذ الامبراطور قسطنطين أى منذ نحو ٣٠٠ فى حروب مع الدولة اليهودية ، لأن الدولة اليهودية كانت قد أصبحت فى خبر كان قبل أن تتخـــذ الامبراطورية الرومانية الدين المسيحى دينا لها فى عهد قسطنطين .



بل أحسب أن النص الأصلى لهذا الجزء من الملحمة على الأقل يشتمل على نواة أقدم عهدا من حكم بيت حكمون وربما لم تكن هذه النواة ذاتها اسرائيلية وانما كانت أقدم من كل وجود قومى لبنى اسرائيل ثم حوره اليهود فى زمن لاحق بما يتمشى مع وقائع تاريخهم القومى أيام أسرة حكمون . فالنص الذى يحدثنا بأن بيت حكمون ، وهو الحاكم فى أورشليم ، كان يحكم لا فى أورشليم وانما فى بيروت انما يدفعنا الى البحث عن فترة تاريخية كان اليهود فيها مقيمين فى أرض كنعان بغض النظر عن أسماء الملوك الحاكمين . وهذا يعود بنا الى عصر اخناتون أى حوالى ١٣٧٥ ق.م ، فوثائق تل العمارنة تذكر أن قبائل « الخبيرى » Khabiri غزت أرض كنعان . والخبيرى فى عرف الكثيرين من العلماء هم « العبريون » . وحوالى ١٢٢٠ ق.م يذكر الفرعون منفتاح (مرنبتاح Merenptah) قبائل « الخبيرى »

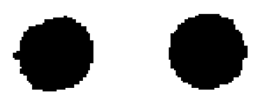
أيضا بين الشعوب الساكنة فى كنعان التى تسميها النصــوص المصرية القديمة ، سواء فى وثائق تل العمارنة أو فيما تلا ذلك من العصور « كناهى » Kinahhi ثم لا يرد لها ذكر بعــد سيتى الأول نحو ١٣٠٠ ق.م. الا معرفة بأل التعريف ، مثل قولك الكنعان . وكانت نصوص الحيثيين المعروفة بنصوص بوغاز كيوى المعاصرة لزمن اخناتون تسميها أيضا « كناهى » Kinahhe ، وكان هذا الاسم يطلق على السهول المتاخمة لساحل فينيقيا بما فيها المدن التجارية الفينيقية ، وهذا يفسر لنا وجود اليهود فى ببلوس التى يسميها النص بيروت . فنحن اذن فى الفترة التاريخية التى أقام فيها العبرانيون فى ساحل فينيقيا وهذه الفترة تقع بين ١٤٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. وقد كانت « كناهى » هذه خاضعة للحكم المصرى منذ أن فتحها تحتمس الثالث (١٥٠٠ـــ ١٥٥٥ ق.م) أما قبل بداية الدولة الحديثة أى قبل ١٦٠٠ ق.م. فلم يرد لكنعان اسم فى آثار مصر القديمة لأنها كانت تعــرف باسم آخر وهو رتينو Retenu وأول اشارة لرتينو فى آثار مصر القديمة ترجع الى نحو ٢٦٠٠ ق.م. حيث هناك تصوير لفتح المصريين لمدن رتينو أى كنعان . ونحو الأسرة السادسة نجد فى مقبرة أونى Uni وهو أحد نبلاء مصر ، مفاخرة لأونى بانتصاراته على « سكان الرمال » الذين غــزوا بلاد رتينو . ونحــو عام ٢٠٠٠ ق.م. ، فى الدولة الوسطى نجد أن « سنوحى » فى القصة الشهيرة يهرب من مصر الى رتينو ، وقد كانت رتينو مستقلة وكانت عاصمتها لود ـــ ليدا Lod-Lydda وهى غرب القدس ،

ويظن بعض العلماء أن اسمها باق فى اسم لوط Lot والليطانى أو اللوطان Lotan . أما بعد الدولة الوسطى فلا نصوص عنها طوال فترة الهكسوس ، الى أن نراها مرة أخرى تابعة لمصر أيام تحتمس الثالث .



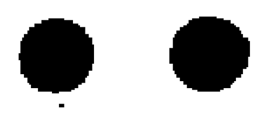
ومن يرجع الى التوراة يجد أن التوراة حين تتحدث عن الأرض المقدسة أو أرض الميعاد تتحدث عن فلسطين آنا وتتحدث عن كنعان آنا آخر ، (سفر « التكوين » ١٢/٧ و ١٣/١٥) ، فهى الأرض التى وعدها الله لابراهيم ونسله . وفى سفر «الخروج» ٨/٣ و « تثنية » ٩/١١ ، ١٣/٢٣ الخ توصف كنعان بأنها أرض « اللبن والشهد » (قارن « حزقيال » ١٦/٢٩ و ١٧/٤ و « مزامير » ١٠٦/٣٨ « وتكوين » ٩/٢٥) . وبهذا تكون كنعان فى الأدب الدينى صورة من صور الجنة ، فليس يبعد اذن أن كناهى Kinahhe المصرية القديمة والحيثية هى المصدر الذى اشتقت منه كلمات مثل « جنة » و « جنينة » و « كنانة » و « جنان » (قارن جهينا Gehenna العبرية بمعنى الجنة) . وهذه هى الصورة التى احتفظت بها أورشليم فى الأدب الدينى والفكر الدينى العبرى والأوروبى طوال ألف سنة من العصور

الوسطى أو منذ القديس أوغسطين حتى الرينيسانس : إنها صورة الجنة ورمز لها . وقد كانت ببلوس (بيروت) قبل أورشليم (القدس) تمثل هذه الصورة وتحمل هذا الرمز عند القدماء على الأقل فى أدب مصر القديمة ودياناتها ، والا كيف نفسر أن اوزيريس ، اله الخصب المصرى ، وجد بعثة فى ببلوس على شطآن فينيقيا ؟



بهذا الافتراض نستطيع أن نفسر كيف ان منشىء الملحمة الأول جعل بيت حكمون اليهودى يحكم فى بيروت ـــ ببلوس، وبه نستطيع أن نفسر تسلل قصة أوزيريس فى زى الزير سالم وتابوته الى ملحمة « الزير سالم » وهذه القرائن تدل على أن نواة ملحمة « الزير سالم » ، لا مجرد الأسطورة ، كانت من انشاء فترة قديمة موغلة فى القدم ترجع الى عصر اخناتون على أقل تقدير أى الى نحو ١٣٧٥ ق.م. واذا كان « الخبيرى » هم « العبرانيين » كما يقول كثير من العلماء ، فالأرجح أن خروج الهكسوس العبرانيين ملوك « أفاريس » Avares أو « عبارس » من مصر انتهى بانتقالهم الى « كناهى » أو كنعان فى ســـاحل فينيقيا ، وبهذا نفسر وجود بنى اسرائيل « العبرانيين » فى

بيروت فى ملحمة « الزير سالم » . وقد يكون هذا النص الأصلى مصريا أو عبرانيا أو ملكا مشاعا لكافة شعوب المنطقة ، ولكن يدا اسرائيلية حورت فيه بحيث نقلت صراعات اليهود القومية والدينية أيام بيت حكمون فى القرن الثانى ق.م. الى عهد كانت بيروت الفينيقية تقوم فيه مقام أورشليم (ومعناها « دار السلام » من Uru Salem) أيام هجـــرة الهكســـوس اليهـا قبل ١٦٠٠ ق.م. ثم حورت فيه يد اســلامية بحيث جعلت صراعات اليهود القومية والدينية أيام بيت حكمون تعيش حتى تواجـه الصليبيين فى القرن الثانى عشر . خمر جديد فى زجاجات قديمة كما يقولون .



أما برجيس الصليبى فهو شخصية تدعو أيضا الى التأمل، وربما أدت بنا الى الكشف عن بعض الخيوط . فليس بين الملوك أو الفرســـان الوافدين الى بيت المقدس من بيزنطة (الروم) أو من أوروبا الغربية أيام الحرب الصليبية ملك أو فارس يعرف بهذا الاسم ، ولو قد حاصر بيروت أو بيت المقدس ملك أو فارس بهذا الاسم لما دنت شهرته عن شهرة ريتشارد قلب الأسد أو لويس التاسع . فمن يكون برجيس هذا الذى نعرفه من الملحمة أنه « ملك الروم » ؟.

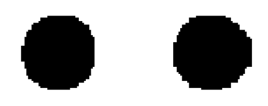
• •

ربما كان من حقنـــا أن نفترض أن الملك برجيس ليس الا ملك الفريجيين ، وهم القوم الذين استوطنوا آسيا الصغرى بين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. قادمين من طراقيا أو مقدونيا وورثوا دولة الحيثيين التى انقرضت تماما نحو ١٠٠٠ ق.م. وفى روايات اليونان انهم أسسوا فى القرن التاسع ق.م. « ثالاسوقراطية » Thalasocracy ، أى دولة بحرية قوية فى بحر ايجه ، كما كانت اليونان تقول ان الأرمن كانوا فرعا منهم ، والدراسات اللغوية تؤيد الوشـــائج بين لغـــة فريجيا ولغـــة الأرمن . وفى وثائق الأشوريين ، بين ١١٢٠ ق.م. (دجلات ــ بيلصر الأولTiglath Pileserr) و ٧١٧ ــ ٧٠٩ ق.م. (سارجونSargon) أن الفريجيين وصلوا الى حدود الفرات . وفى ملاحم هوميروس أن مركز دولتهم كان وادى سنجر فى آسيا الصغرى .

• •

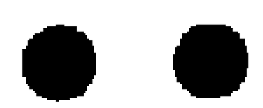
هؤلاء الفريجيون ، كان اليونان يقولون ان اسمهم مشتق من كلمـــة « فريجيس » أو « فروجيس » Phryges ومعناها

« الرجال الأحرار » ، وقد فتح الاسكندر فريجيا عام ٣٣٢ ق.م. ثم حكمها أخلافه من الملوك السلوقيين Seleucids الحاكمين فى سوريا فى ٣٠١ ق.م ولكنها لم تلبث أن نازعهم فيها أهـــل جالاتيا وأهل برجامون Pergammon فى ٢٧٥ ق.م. وهم كالفرجيين من أقوام الأناضول . الى أن طرد الرومان السلوقيين من فريجيا فى عام ١٨٩ ق.م. ثم ضموا فريجيا وبرجامون نهائيا الى حكم روما عام ١٣٣ ق.م. وقد دخلت المسيحية فريجيا نحو ٢٠٠ ميلادية ولم يمض قرن الا وكان كل الفريجيين قد اعتنقوا الدين الجديد. ولكن اسم فريجيا اختفى نهائيا فى العصر البيزنطى أى منذ أسس قسطنطين بيزنطة عام ٣٢٦ ميلادية .



فأيام مجد فريجيا ، كما كان الحال أيام مجد الحيثيين وأيام مجد طروادة التى كانت تسمى أيضا برجامون ، وكما كان الحال أيام مجد بيزنطة ، كانت آســـيا الصغرى هى مركز القوة السياسية والعسكرية المتاخمة للشام وما بين النهرين ، وسواء أكانت طروادة أو فريجيا أو برجامون أو بيزنطة أو تركيا ، فقد كانت الأناضول ، ولاسيما القسم الغربى منها هى أرض الروم بالنسبة للعرب ، وكان بحر ايجه هو بحر الروم ، غالبا

تحريفا من « اليون » Ilion وهو اسم طروادة فى العالم القديم . وقد ظل سكان الأناضول أو أقاليمها الغربية على الأقل يعرفون بالروم حتى فى ظل الامبراطورية العثمانية المسلمة . ففى تاريخ ابن زنبل المكتوب فى القرن السادس عشر عن فتح السلطان سليم لمصر عام ١٥١٧ ، نجد ابن زنبل يتحـــدث عن الأتراك العثمانيين باسم الروم . وقد بقى اسم الروم لاصقا بالترك ـــ أو سكان سواحل الأناضـــول حتى أوائل القرن التاسع عشر كما نجـد فى الجبرتى الذى يحـدثنا عن الروم بمعنى الترك المسلمين . فالفريجيون اذن كانوا عنـــد العرب مملكة الروم ، ولا يبعد أن تكون اليوم هى ارم ذات العماد . ومن هنا كان برجيس ملك الروم فى ملحمة الزير سالم بمثل ما نجد ان اسم الترك يشـــتمل على جـــذر طروادة Troj . أما « الصليبى » وما جاورها من أوصاف تصور جو الحروب الصـــليبية مع المسلمين فى العصور الوسطى ، فهما من اضافات المتأخرين .



وقد دخلت فريجيا (روم الأناضول) مع السلوقيين (روم هيلاس أو الهيلينيين) الحاكمين فى أنطاكية بسوريا فى صراع عنيف ، أدى أولا الى سيطرة الهلينيين على روم الأناضول ثم أدى الى سيطرة روم الأناضـــول ثم الرومان على الهلينيين

ومملكتهم السلوقية فى أنطاكية . وقد كانت غزوات الروم والرومان للشام فى الفترة السابقة والمعاصرة لحكم بيت حكمون وقد أسفرت عن تبعية السلوقيين لروم الأناضول ثم للرومان وكانت مهمة الروم الهلينيين من ملوك أنطاكية أن يخضعوا الشعب اليهودى ، وفى فترات أمكن لليهود التعايش معهم على أساس التبعية ودفع الجزية ، أما الفترات المتوترة فقد كان هدف الغزاة فيها تدمير دولة اليهود واستئصال الديانة اليهودية . فاذا اتخذنا الأسماء دليلا يهدينا الى التراكمات الملحمية ، فربما وجدنا فى اسم نيكاتور Nicator ، وهو اسم الشهرة لسليوكوس مؤسس دولة السلوقيين فى بابل وانطاكية ، المصدر الأصلى لاسم منجد ولاسم ناجد (وهما فى الحقيقة صيغتان من اسم واحد)وهو أحد أخوال كليب الأربعة (جوشن وناجد وجودر ومنجد أخوة جميلة زوجة ربيعة) الذى تقول ملحمة « الزير سالم » ان هجرس بن كليب من جليلة بنت مرة نفى اليه وليدا ليعود فتيا وينتقم لمقتل أبيه كليب . ومن الأسماء التى ينبغى أن نتوقف عندها اسم الأمير طراف الذى يشبه اسم القائد طريفو Trypho صاحب المطامع فى عرش انطاكية ، وهو الذى حارب بيت حكمون رغم صداقته لأحد الأخوة المكابيين ثم لقى مصرعه . وحين نقرأ اسم شمعون طبيب الملك حكمون الذى تولى بطبعه اعادة الزير الى الحياة فى قصر الملك لا يسعنا الا أن نتذكر كيف أن بطليموس الأول ملك مصر حين دخل فى صراع مع نده القائد سيلوكوس نيكاتور ملك بابل ، وكلاهما ورثا ملك

الاسكندر بعد أن كانا من قواده ، خرب تحصينات أورشليم التى ظلت مخربة قرنا كاملا حتى أعيد بناؤها فى عهد سمعان أو شمعون الثانى Simon II (٢١٩ — ١٩٩ ق.م.) ، وهى طريقة مجازية فى التعبير عن أن هذا الكاهن الملك رد الحياة الى اورشليم كما رد شمعون طبيب الملك حكمون الحياة الى اوزيريس . وحين نقرأ أن الملك حكمون فقد أخاه صهيون فى المعركة أو أن أحد أخوال كليب كان يسمى جودر أو أن الزير سالم بعد خروجه من بيروت التقى بالأمير طراف وبسلام المهبا (المهيا ؟) أو أن جساسا أرسل الى الزير سالم وهو معتكف فى بئر السباع أو بير سبع الجارية رباب جارية همام لتسر الى همام بنبأ مقتل كليب لكى يفر وينجو من براثن الزير سالم ، أو أن الزير سالم بعد خروجه من أرض كنعان سار وحده الى مرج بنى عامر ، لا يسعنا الا أن تتذكر أن جبل صهيون ، وأن كدرون أو جدرون Kidron وطروفيون Tyropoeon والربابى Errababi وسلوام Siloam كلها هى الأسماء القديمة للوديان المحيطة بأورشليم والشاطرة لهضبتها كما ورد فى جوزيفوس . وتسمية الملوك والأمراء بأسماء بلادهم من مألوف العرف ، لا فى العالم القديم فحسب ، بل وفى العصور الحديثة كذلك ، حيث نجد انطونيوس فى نزعه الأخير ينادى كليوبترا :

I am dying, Egypt, dying

أو يسمى ملك انجلترا : « انجلترا » وملك فرنسا : « فرنسا » ، واللازمة متواترة فى أدب شكسبير وغيره .

• •

فالأرجح اذن أن هذه كانت أسماء دويلات فى سوريا الكبرى تجسدت فى صورة أبطال وشخصيات تتحرك وتحرك عجلة الأحداث . بل حين تقرأ فى الملحمة أن الزير سالم بعد خروجه من أرض كنعان (بيروت ــ ببلوس) سار وحده الى « مرج بنى عامر » ، فلا يسعنا الا أن تتذكر العموريين Amorrites ، وحين تقرأ أنه يفاخر أمام حكمون بأنه « حاصد الرءوس » فى قوله لحكمون ملك اليهود :

ان كنت تسأل يا ملك عن صنعتى

صنعتى « حاصود » فى رءوس الرجال

• •

لا يسعنا الا أن تتذكر جماعة « الحصيدهيم » Hasidhim أيام ملك بيت حكمون التى كانت شديدة الغلواء فى المحافظة على الدين اليهودى ولا ترضى بأى تغلغل ثقاف هيلليني فى حياة اليهود . وأخيرا فان هناك ذلك التحالف بين الزير سالم وبين

الملك حكمون ، ذلك التحالف الذى جعل الزير سالم يخرج كالأسد الغضنفر ويمزق جيوش الملك برجيس ويحمى اليهود من الهلاك . ومن يستعرض تاريخ المنطقة يجد أن أورشليم كان لها تاريخ طويل مع مصر حتى قبل أن يحتلها بنو اسرائيل . فقد كانت فى أيام الفراعنة بمثابة قلعة أمامية لمصر وكانت فيها حامية مصرية . وقد كانت تسميها نصوص تل العمارنة « اوروسالم » أى « مدينة السلام » (قارن دار السلام) حتى قبل أن يغزوها بنو اسرائيل ، وكانت فى أيام اخناتون تابعة لمصر قبل أن يغزوها يوشع ويستولى عليها . وفى وثائق تل العمارنة سبعة خطابات من اوروسالم تتكلم عن غزو وشيك وتطلب النجدة من المصريين، أما هذا الغزو الوشيك فقد كان غزو اسرائيل . وتاريخ دولة اليهود فى السنوات الألف ق.م. فيه تحالفات واستنجادات متعددة مع مصر وبمصر لحماية أورشليم من غزاتها الآشوريين أو السلوقيين كما أن فيه انتفاضات عديدة على مصر وانحيازات لأعداء مصر فى الشمال وفى الشرق وفى الجنوب من فلسطين .
وما دام النص قد فرض علينا بما رواه من قصة الاله المعذب معادلة « الزير » سالم باوزيريس اله الخصب المصرى ، وما دام الراوى أو الرواة قد نسجوا بعض أنسجة الملحمة بخيوط الصراعات القومية والدينية فى الشرق القديم ، فليس أمامنا الا أن نفترض أن مناصرة الزير سالم للملك حكمون وحمايته اياه من الملك برجيس كانتا تمثلان فترة من فترات اعتماد دولة اليهود أو بلاد كنعان أو كليهما فى عصور مختلفة على قوة

المصريين ، سواء أيام السلوقيين أو الفريجيين أو الآشـوريين والبابليين أو الحيثيين .



ولنعد الآن الى نص ملحمة « الزير سالم » . قال الراوى ان الزير سالم بعد أن ترك بيروت فى طريقه الى موطن بنى ربيعة أو بنى قيس أو بنى تغلب التقى بالأمير طراف بن ناصر فوجده عريان حافيا . فقد دارت على قومه الدوائر بعد غياب الزير سالم ثمان سنوات فى بلاد الملك حكمون . وسأل طراف بن ناصر الزير سالم أن يعود الى قومه ولكن الزير سالم أصر على المرور بديار بنى مرة ليعرف بنفسه من من بنى قومه انضم أثناء محنته الى جساس وجماعته لينتقم منهم . وقد كان طراف بن ناصر متنكرا ليقف على أحوال جساس وقومه شأنه فى ذلك شأن الزير سالم . وهناك التقيا بالأمير سلام المهيا ، ولم يعرف سلام الزير سالم أول الأمر فقد كان الزير متنكرا . ولكن هاتفا جذب سلاما الى الزير حين رآه ، فأخذ يندب أمامه غيبة حامى بنى ربيعة، فقال له الزير : « كيف تبكى عليه وأنت ملتجى الى أعدائه » . وهنا عرف سلام الزير سالم فعانقه . وطلب الزير سالم الى سلام وجماعته أن يبقوا حيث هم حتى اذا ما رأوا السيوف مشرعة

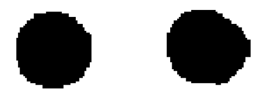
على بنى مرة فان عليهم عندئذ أن يؤدوا واجبهم . ثم دخل الزير وطراف حى جساس متنكرين وقت المساء فوجدا الحى فى أفراح عظيمة تدوى فيه الدفوف والطبـول ورأيا جساسا مع رجال دولته يحتفلون والمولدات يدققن بالدفوف والمزاهر ومد الخوان فاندس الزير بين المدعوين ، فراعت جساسا ضخامة جثته وشهيته المهولة واتتابه خوف عظيم فأمر بالعرافين أن يضربوا الرمل له فأنبأوه بأنه مقبل على زمن منحوس لأنه سيظهر رجل « تقى الخد » ينزل به الوبال ، فظن جسـاس أن هذا العـدو هو الزير سالم ، فلم يكن له غيره غريم وأعرب عن قلقه بقوله :

لو يصح القول قلت الزير جا   ها هو جالس بين الأمـــرا



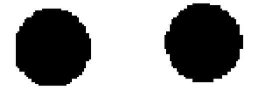
وسمعه الزير فوضع يده على مقبض سيفه خشية أن يفتك به ، ولكن جساسا فى حيرته اعتزل الناس وانصرف الى حريمه. فانصرف الزير سالم مع الأمير طراف وقصدا ديار قومه . ونزلا بوادى « الشعاب » ودخلا خيمة بنات كليب وعرف اليمامة من صوتها ووجدها مع شـقيقاتها تلبس ثياب الحـداد (قارن الباردوس فى « حاملات القرابين » لاسخيلوس حيث تظهر اليكترا بين اماء القصر فى ثياب الحداد يقدمن القرابين) . ولم

تعرفه اليمامة لتنكره ، وظنته شيخا درويشا كما ظنه جساس من قبل ، وحدثته عن أحزانها . فلما كشف لها الزير عن نفسه فرحت فرحا عظيما ، وكذلك فرح عبده « أبو شهوان » ، فقد كانوا يحسبون أنه قد مات .

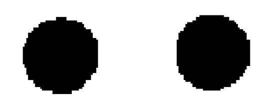


وأخذ الزير سالم يعد العدة للقتال ، وكان قد ترك حصانه « الأخرج » فى المركب التى حملته الى حيفا وديعة عند القبطان « ولما انتصف الليل ودعهم وسار قاصدا شاطىء البحر » وطلب أن يسترد جواده فعلم من القبطان أن مرة أبا جساس خرج كعادته « انه يذهب كل يوم الى ساحل البحر » ، وحيث رأى الجواد فى المركب أعجب به واستفسر عنه فعرفه القبطان أنه جواد الزير سالم ، فهاله الأمر وعرض أن يشترى الجواد بثمن عظيم ولكن القبطان أبى أن يفرط فى الوديعة ، فهدده بأن يأخذه بالقوة فاستسلم القبطان وباعه الجواد . وعاد مرة بالجواد الى ولده جساس وأعلمه بكل ما كان . فلما افتقد الزير سالم جواده ولم يجده وعرف من القبطان بكل ما قد كان ، أبحر من جديد الى الملك حكمون لكى يأخذ منه الجواد الآخر « أبو حجلان » فأعطاه اياه الملك حكمون فأبحر به من جديد

الى قومه . وفى ديار تغلب جيش الجيوش واستعد للقتال العظيم ، وكان ساعداه فى ذلك أخوه عدى وأخوه دريعان .



ومن المهم أن نلاحظ فى هذه المرحلة من الحلقة أن الراوى — دون أن يقصد — لا يفتأ يكرر معنى هاما يعيننا على التعرف على مواقع بنى بكر وبنى تغلب . فقد رأينا أن الملك حكمون كان يحكم « الأمة العبرانية » من مدينة ساحلية هى بيروت . التى كانت تسمى « الخيرية » كما يقول النص (قارن Keret الكنعانية) والآن نرى أن بنى ربيعة وبنى مرة كانوا أيضا يسكنون مدنا ساحلية ويتريضون ويتجسسون على شاطىء البحر . فنحن اذن لسنا فى داخلية فلسطين أو الشام ولكننا على سواحل فينيقيا .



ثم التقى الجمعان فكانت وقعة كيوم الحشر ، وانجلت الوقعة عن اندحار بنى مرة اندحارا منكرا وفرار جساس ورجاله

بعد أن سقط منهم عشرة آلاف قتيل . وفى اليوم الثانى ركب الزير سالم فى مائة ألف وركب جساس فى مائة ألف وانهزم بنو مرة شر هزيمة وسقط منهم الأمير شهب المكنى بعقاب . وفى اليوم الثالث برز الأمير شاليس أو شاويش ، أخو جساس ، من بين الصفوف ، وطلب مبارزة الزير سالم فأرداه الزير قتيلا بعد أن صارعه شاليس صراع الأبطال . وعندما نزف بنو مرة بغزارة وحطمتهم الهزيمة يئسوا من مصيرهم فتداولوا فى أمرهم، فرأى سلطان أن يمضى جساس ومعه الجليلة وبعض نساء القبيلة الى الزير سالم ، فتستعطفه الجليلة أن يرفع سيف غضبه عن قومها ، وتعطيه ما يطلب من الدية وتقيمه ملكا على الشام وتدفع له الجزية كل عام . ولكن جساسا أبى أن يعرض نفسه للهلاك فتطوع سلطان بأن يمضى الى الزير سالم مع أكابر نساء القبيلة ليقدم فروض الطاعة للزير ، وفعل ذلك ، ولما استمع الزير الى مقاله أجاب :

كل ذا جارى عليكم يا رجال
من يمامة بنت أختك بالأكيد
اليمــامة كل يوم تقــول لى
خذ بثارى أيها البطل العنيد
فان عفت أنا عنكــم أعــفى
كل قول صادق والله شــهيد
وان أبت لست أخالف قولها
اننى عن أمرها لست أحيــد

• •

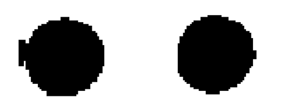
وسألهم الزير أن يتوجهوا الى اليمامة لأنها صاحبة القرار الأخير . أما اليمامة فقد سمعت ضراعتهم بأذن صماء وأجابت فيما أجابت :

انا لا نصالح حتى يقوم والدى   ونراه راكب يريد لقـــاكم

• •

فعادت الجماعة بخفى حنين وعرفت أنه لا نهاية لهذه الحرب حتى يبيدوا عن بكرة أبيهم . وكان سلطان ذا مكر عظيم ، فرأى أن يحفر فى ميدان القتال ثلاث حفر يغطيها بالقش ، حتى اذا ما دقت طبول الحرب خرج جســاس لمبارزة الزير ســالم ، واستدرجه بعيدا عن رجاله الى تلك الحفر ؛ فيسقط فى هــذا الشرك ويقضى عليه . وقد كان . وحين طلب الزير جساسا ليناجزه استدرج جساس الزير الى تلك الحفر فسقط فى احداها . وهم أن ينقض عليه برجاله ، ولكن الجواد المعجزة أبو حجلان ،

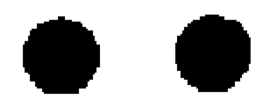
أنقذ الزير من الموت المحقق ، اذ شب وقفز وخرج من الحفرة فتراجعت الفرسان الا جساسا ، وطلب الزير جساسا ليناجزه ، ولكنه سقط فى الحفرة الثانية . ووثب أبو حجلان وثبة النمر من الحفرة الثانية فنجا الزير وحمل على جساس ليرديه قتيلا ، ولكنه سقط فى الحفرة الثالثة ، وكان أبو حجــلان قد أدركه الإنهاك فلم يستطع أن يخرج للمرة الثالثة . ودار قتال ضروس بين رجال جساس ورجال الزير سالم حول الحفرة الثالثة ، وأمر جساس رجاله بأن يهيلوا التراب والأحجــار على الزير سالم ليدفنوه حيا ، ولكن سيوف أبطال الزير سالم ردتهم عن ذلك . ورمى الأمير عدى ـــ أخو الزير سالم عمه مرة والد جساس فى الحفرة قائلا : « خذ عمك يا مهلهل » . فلقيه الزير سالم بحد السيف وأرداه قتيلا . ثم أخرج أبطال الزير سالم الزير من الحفرة بعد قتال عظيم وحمل الزير برجاله على جساس ورجاله فلاذوا بالفرار .



هذا المشهد الغريب ، مشهد القتال فى الحفر وحــولها بين الزير وجساس ، وبين الزير ومرة ، يذكرنا بما جرى من قتال فى « هاملت » بين الأمير هاملت عاشق اوفيليا ولايرتيس أخى

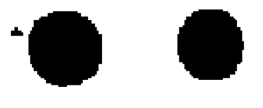
اوفيليا فى قبر اوفيليا قبل دفنها . وقد خاض الزير سالم هذا المشهد بقوله :

يقول الزير أبو ليلى المهلهـل ... فدمع العين هطال عمـانا ..
فقلت لهم فروحوا لليمـامة ... رضاها اليوم أحسن من رضانا
قتلنـا فى كليب ألف قـوم ... فما فيهـم ردى ولا جبـانا
قتلنا من بنى مـرة امـارة ... ملابسها ثياب الطيلسانا ...
فانا لا نصـالح فى كليب ... الا أن نراه علي الحصانا ...
وقف جساس ما بين الحفاير ... هجمت عليه أطعنـه السنانا
فولى هاربا من هول حـربى ... ومرة قد قتلنـاه عيـانا ...
فـكونى يا يمـامة فى انشراح ... وحظ دائم طـول الزمانا ..



والصورة الأدبية لاليكترا واوفيليا واليمامة صورة واحدة. فهى العذراء التى أصابها مقتل أبيها بجرح لا يشفى مدى الأيام. واذا كانت اوفيليا قد أودى الحزن بعقلها وانتحرت كمدا على أبيها ، فان اليكترا واليمامة كانتا أصـلب منها عودا . ولـكن مشهدا مثل مشهد القتال فى القبر أو القتال فى الحفرة يوحى بوجود وشائج قديمة بين أسطورة أوريست وأسطورة الزير وأسطورة هاملت طمست الأزمنة المختلفة والبيئات المختلفـة

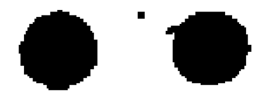
والحضارات المختلفة بعض معالمها ولكنها لم تستطع أن تطمس بعضها الآخر .



وهنا يحدث تحول غريب فى الملحمة ، فان الزير سالم بعد أن هزم بنى مرة فى جملة معارك ظهر له شيبون أو شيبان أو شومان ابن الأمير همام فى ألف فارس مدجج بالسلاح . تقول الرواية أن شيبون قد خرج الى قتال الروم وقت أن مزق الزير ووضع فى التابوت وألقى فى البحر وطفا على الأمواج حتى بلغ بيروت، بلاد حكمون ملك اليهود . فهو اذن قد كان فى جانب الزير تاريخيا لأنه قاتل مثله الروم لحماية « الأمة العبرانية » . ولكننا نذكر أن الزير سالم حين كان معتكفا فى بير صندل السباع بين كأسه وأوتاره وشعره وغنائه واله صيده ثم بلغه نبأ مقتل أخيه كليب استولى عليه جنون الغضب ففتك بالغلام شيبان بن همام من أخته أسماء أو ضباع . والنص فى هذه المرحلة يقول ان شيبون بعد عودته من غزو الروم علم من جساس بكل ما أنزله الزير سالم من كوارث : فهو قد قتل أخاه شيبان وأوشك أن يبيد بنى مرة ، ثار و « صار الضيا فى عينيه ظلام » وأعلن انه سوف يناجز خاله الزير سالم ويسقيه كأس المنون . فالنص اذن

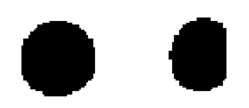
يقول ان الأمير همام وأسماء (ضباع) كان لهما ولدان هما شيبان وشيبون ، وان كان تجانس الأسماء يوحى بأنهما فى الأصل شخص واحد ينطق اسمه بلهجات مختلفة (قارنْ أيضا : شيبان وشومان) . وأيا كان الأمر فقد أرسل شيبون الى الزير يتحداه الى السلاح ، فحذره الزير من هذا اللقاء ولكنه قبل تحديه . ثم كان اللقاء الرهيب والزير لا يفتأ ينصح الفتى شيبون أن يحجم خشية أن « يلحق أخاه شيبان » . فلما وجد اصراره قال :

دونك الميدان يا شيبون قم   شد عزمك لا يكن باعك قصير



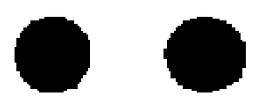
وكان صراع رهيب غير متكافىء بين شيبون الغضير العنيد والزير المجرب العتيد ، وأردى الزير شيبون « بسيف حكمون »، وهو السيف الذى كان الزير قد أخذه عند رحيله من الملك حكمون . ولما رآه مجندلا أمامه ندم وجرت عبراته مدرارا . وكذلك بكى بنو مرة فقد فتاهم شيبون . واستبد الحزن بالزير فرثى شيبون بمرثية حكيمة . فلما بلغ الأمير همام وضباع أو أسماء مقتل ابنهما شيبون حزنا عليه حزنا عظيما فقد كان شيبون « وحيد همام بعد شيبان » . وخرج همام للثأر لولده ، خرج ملثما حتى لا يعرفه الزير ، وكانت بينهما وقعة رهيبة

انتهت بأن الزير جندل الأمير همام . وعندها أسفر همام عن وجهه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وعاتب الزير على فتكه بولده، وهو أخلص أصدقائه ، فاشتد الحزن على الزير سالم وقال معاتبا كاسف البال : « يا همام ، أما عاهدتنى ألا تقاتلنى أبدا ؟ » أما ضباع فقد ذهب عقلها ونددت بأخيها الغادر الذى ثكلها فى البعل والولد ، وذكرته بما أسدته اليه من جميل يوم مزقته سيوف سلطان وفرسانه الثلاثة آلاف ، فهى قد أنقذته من الحرق عندما أمرها سلطان بأن تحرق جثمانه ، ووضعته فى التابوت وألقت به الى البحر لتنقذه . ولكنها لم تلبث أن صفحت عن الزير حين رأت أنه لا يقل عنها هما واكتئابا ، وأقامت مع أخيها .



وخف الى نجدة جساس وقومه فارس خطير هو « الفند ابن سهل » ومعه فرسانه السبعون الصناديد ، وخرجوا للقاء الزير سالم تحت لواء جساس ومعهم فارس من أكرم فرسان جساس اسمه « الحارث بن عباد » (والملحمة تسميه « الحارس ابن عباد ») . قال الحارث بن عباد لجساس قائد القـواد : « هل تطيعنى أيها الأمير فيما أقول وأشير ؟ » . قال نعم . وهنا عرض الحارث بن عباد على جساس خطة غريبة للقتال : ان الزير

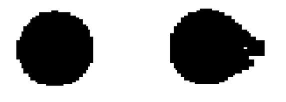
وقومه مستخفون بجساس وأعوانه لقلة عدد رجالهم . والرأى هو أن جساس يقاتلهم « بالنساء مع الرجال » ، ومعنى هذا أن يختار جساس أشجع من عنده من النساء والبنات وبعد أن يحلق رؤوس فرسانه ليسهل تمييزهم فى غبار المعركة ، يحشـدهن صفوفا خلف صفوف الرجال ، وكل منهن تحمل مطرقة من الخشب والماء اللازم للسقيا ، فاذا سقط الفرسان الى جوارهن عرفنهم ، فسقين جنود الأصدقاء وضربن بالمطرقة جنود الأعداء. ووافق جساس على هذه الخطة فحلق رؤوس جنوده جميعا فيما خلا فارسا واحدا اسمه ربيعة بن مروان رفض أن ينصـاع لأمر الأمير .



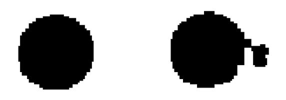
والتقى الجمعان فى مكان يدعى « عقبة الريحان » ، وبرز فى هذا القتال جساس الذى حارب محاربة من يؤثر الموت على الحياة ، وكذلك برز الفند بن سهل . وكان امرؤ القيس يحارب فى صف الزير سالم كليث الآجام ، وهجم الفند على الزير وشدد النكير هجوم الأسود تحت الرايات والبنود . وفى هذه الوقعة الضروس أثخن الزير سالم بالجراح وانكسر جيش المهلهل شر انكسار وخر امرؤ القيس صريعا فى القتال . وكان هذا يوم الفند

ابن سهل الذى تقدم جيوش بنى بكر وهم عائدون منصورين الى ديارهم بعد أن سحقوا قوات بنى تغلب . وفاخر الفند بن سهل بانتصاره قائلا :

عجلا اليوم صاحبى الرواحا واسقيانى قبل المدامة راحا
أين ليلى وأين ليلى وليلى أعشقت قبلنا المدامة ملاحا ..
لقيت تغلبا كعصبة أعاد اذ أتاهم هو العذاب صباحا..
وتركنا ديار تغلب قفرا وكسرنا من العدو الجناحا
وترى الزير يكثر القول فينا بعد ما صار مردا مستباحا



وحين بلغ الزير سالم هذا التفاخر غضب أشد الغضب فجدد أهوال القتال عشرة أيام متصلة كان فى أكثر معاركها منصورا . وحين نزف الفريقان نزفا خطيرا اتفقا على هدنة مدتها شهرين .

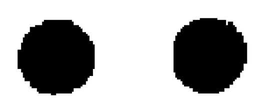


هذه الحلقة من « الزير سالم » ذات أهمية قصوى من الناحية التاريخية ومن الناحية الأدبية ، لأنها تمدنا بدليل نهائى

يثبت ما افترضناه عن تاريخ بعض الأحداث التى تتناولها هذه الملحمة . فانضمام الحارث بن عباد وهو الحارثة بن عبادة ملك النبط الى معسكر بنى مرة أو بنى تغلب يثبت الاطار التاريخى لهذه الملحمة ويحـدد الفترة التاريخية التى تتناولها فى بعض فصولها . فملكة النبط Nabata التى كانت حاضرتها البطـراء Petra ، وهى فى الأردن الحـالية ، لا ذكر لها ولا لأهلهـا النبطيين أو الأنباط قبل ٣١٢ ق.م. ، أى قبـل أن غـزاهم انتيجـونوس الأول Antigonus I ملك السلوقيين الحاكمين فى دمشق من الروم الهللينيين ورثة الاسكندر الأكبر . وقد فشل انتيجونوس فى الاستيلاء على قلعتهم الجبلية فى البطراء . وقد امتد ملك النبطيين فى المنطقة التى تفصل حدود سوريا عن الجزيرة العربية من الفرات حتى البحر الأحمر ، ثم ترامى سلطانهم فى الجزيرة العربية من جهة ساحل البحر الأحمر ، وقد استفادوا من انهيار دولة السلوقيين ليمدوا تخومهم شرق الأردن . ونحو ٨٥ ق.م. كان ملكهم الحارثة Aretas ، كما ورد باليونانية فى « الآثار اليهودية » لفلافيوس جوزيفوس أو Arethath كما ورد فى غيره من النصوص . واستولى الحارثة على حوران Hawran وأصـبح ملكا على دمشق وعلى Coele-Syria . وقد تحالف النبطيون مع الجيل الأول من بيت حكمون ملوك دولة يهوذا فى النصف الأول من القرن الثانى ق.م. فى حروبهم مع الروم السلوقيين (١ مكابيون ٥/٢٥ و ٩/٣٥ و ٢ مكابيون ٥/٨) ، وبرزوا فى المنطقة كمنافسين لبيت حكمون ومملكة يهوذا أيام

شوكتها وقد كانت تحركاتهم فى المنطقة من أهم العوامل التى أدت الى تدخل بومبى بالسلاح لغزو الشام وفلسطين ، ولكن السلاح الرومانى لم ينجح معهم ، فظل ملكهم الحارثة محافظا على كل ممتلكات النبطيين بما فيها دمشق التى بقيت تابعة للحارثة الى زمن تحول بولس الرسول الى المسيحية فى القرن الأول الميلادى كما جاء فى (٢ كورنثيون ١١/٣٢) . وقد تحالف النبطيون مع الرومان فبقيت دولتهم مزدهرة طوال القرن الأول الميلادى حتى خرب الامبراطور تراجان البطراء ولاشى دولة النبطيين عام ١٠٥ ميلادية . وقد وصفهم سترابو Strabo (فى كتابه الجغرافيا ١٦/٤) بأنهم شعب عامل مجد يقبل النظام ولا يهتم الا بالتجارة والزراعة . ولكن أهم ما يذكره التاريخ عنهم أنهم طوروا الخط الآرامى بحيث أصبحت قواعد الخط النبطى الذى خرجت منه الكتابة العربية . وملوك النبط المعروفين سلسلتان ، سلسلة تحمل اسم عبادة (عبادة الأول ، عبادة الثانى الخ ..) وسلسلة تحمل اسم الحارثة (الحارثة الأول ، الحارثة الثانى) . والمعروف أن ملك النبطيين أيام انطاكى الرابع الملقب باتنيفانيس Antiochus Antiphanes ملك السلوقيين الحاكم فى دمشق (ولد ٢١٥ وتوفى ١٦٣ وارتقى العرش ١٧٥ ق.م) كان اسمه الحارثة . وانطاكى الرابع هذا ملك الروم السلوقيين هو الذى سيطر على دولة اليهود وهاجم القدس وسيطر على دولة اليهود وجعل معبد سليمان مركزا لعبادة زيوس ، وعمل بهمة على نشر الثقافة الهللينية بينهم بالاكراه مما أدى الى رد

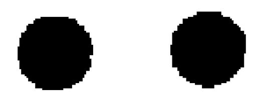
فعل عنيف بين اليهود ألهب فيهم العصبية الدينية والقومية . وقد غزا أنطاكى الرابع هذا مصر (١٦٩ ـــ ١٦٨ ق.م.) فيما سماه حربا « دفاعية » ،أوشك أن يستولى عليها من البطالسة لولا تدخل روما .



كل هذه الوقائع والظروف تحدد الفترة التاريخيـــة التى تتناول ملحمة الزير سالم أحـــداثها وهى فترة حكم أنطـــاكى ابيفانيس فى دمشـــق (١٧٥ ـــ ١٦٣ ق.م) وهى فترة حكم الحارثة فى البطراء (كما جاء فى ٢ مكابيون ٥/٨) ، وهى أيضا فترة حكم المكابيين أو بيت حكمون فى أورشليم (بيت المقدس). وليس فى فينيقيا (بيروت) كما يقـــول النص ـــ وهى فترة تعاطف بطالسة مصر مع دولة يهوذا بحكم اشتراكهما فى عداوة أنطاكى الرابع ملك الروم السلوقيين . وهذا يوضح معنى هذين الحليفين أو المحورين اللذين تحدثنا عنهما ملحمة « الزير سالم »، حلف حكمون ـــ الزير (فى صورة أوزيريس) ـــ امرؤ القيس، وهو محور العبرانيين والمصريين والقيسيين أو بنى ربيعة . وحلفه جساس ـــ الحارثة ـــ فهد ، وهو محور البكريين أو بنى مرة والنبطيين والروم على أرجح تقدير . أما امرؤ القيس نفسه ،

فنص الملحمة حريص على أن يستدرك أنه « غير امرىء القيس الشاعر المشهور » ، وهو ، كما يقول شاهده المنقوش بالكتابة العربية وقت خروجها من الكتابة النبطية : « ملكو العـرب كلهمو » ونائب قيصر الروم فى القرن الرابع الميلادى . ومعنى هذا أن الأحداث السـياسية الأساسية التى تتناولها المسرحية تدور أيام تحالف المكابيين مع الحارثة بن عبادة النبطىوبطليموس مصر بين ١٦٨ و ١٤٢ ق.م. وربما منذ ١٧٥ ق.م. عام ارتقاء انطاكى ابيفانيس عرش السلوقيين فى دمشق . وربما كان من حقنا أن نشتبه فى أن الأمير سلام المهيا صديق الزير ، واسمه يكتب أحيانا سلام المهبا ، ليس الا أحـد الاخـوة المكابيين (مهابيوس ــ مكابيوس) وأن صيغة المهيا بالياء من تصحيف النساخ . وفى هذه الحالة تكون نواة الملحمة قد أعيدت صياغتها فى فترة قريبة لاحقة لهذه الصراعات التاريخية أى داخلته هذه الاسرائيليات بين القرن الثانى ق.م. والقرن الثانى الميلادى ، ثم أضاف الراوى أو الرواة اليه اسم الملك امرؤ القيس بعـد القرن الرابع الميلادى فى الجاهلية الوسطى أو القريبـة ، ثم استدرك الراوى الاسلامى للتنويه أن المقصود هو امرؤ القيس الملك لا امرؤ القيس شاعر المعلقات . اللهم الا اذا كان البيت المالك ، بيت امرىء القيس ، كبيت عبادة وبيت الحارثة وبيت بطليموس وبيت أنطاكى أسماء لسلسلة طويلة من ملوك العرب كان منهم واحد معاصرا لوقائع المكابيين . وأيا كان الأمر فسياق حلقة حكمون يدل على أن النص الأصلى ليس اسرائيليا ولا نبطيا

ولا عربيا ولا سلوقيا لضآلة الأدوار التى يؤديها سلام المهبا ، والحارثة بن عباد وامرؤ القيس والفند بن سهل ، وان كان الفند قد صور فى صورة أول من استطاع قهر الزير فى القتال (لا بالغدر شأن سلطان) كما فعل ابيفانيس الأنطاكى ببطليموس مصر . وظاهر الحال على الأقل يدل على أن النص الأصلى مصرى لأن الشخصية المحورية فى كل هذه الأحداث وغيرها هى شخصية الزير.



بعد أن انتهت حلقة انهزام الزير أمام الفند بن سهل ، وهو نذير بانتهاء سطوته ، قال الراوى : « وكان لما قتل كليب كما تقدم الكلام وكانت امرأته الجليلة حاملة بهذا الغلام ، فلما طردها الزير وجاءت الى عند جساس أخيها ولدت غلاما فسمته الهجرس . «ولقبوه بالجرو» وهكذا تنتهى ملحمة « الزير سالم » بقصة الابن المنتقم لأبيه بعد أن كانت تتناول قصة الأخ المنتقم لأخيه . أما الغلام هجرس الذى ولد بعد مقتل أبيه كليب فقد أنشأته أمه الجليلة بنت مرة فى بيت خاله جساس فنبت بين أبناء

جساس « ونشأ الغلام ذا عقل وأدب وهو محبوب من جميع العرب لفصاحته وبراعته وقوته وشجاعته » كذلك تفوق هجرس فى الفروسية واشتهر بها ، فلما بلغ الخامسة عشرة من عمره بدأ جساس يتخوف منه لما رآه فيه من سمات البطولة الخارقة وخشى أن يقضى عليه « لأنه قتل أباه بالأمس وتركه طول الدهر » وذات يوم دخل هجرس أو الجرو فى مبــارزة مع عجيب بن جساس فجرحه ، فحنق عليه عجيب وأهانه وكذلك حنق عليه سلطان وأهانه ، فالتمس هجرس من أمه الجليلة النزوح عن ديار جساس فهربت به ليلا الى ديار الأمير منجد بن وائل خال زوجها كليب . وكان منجد بن وائل قد فر أيام مقتل التبع حسان ، لأنه كان من أعوانه ، وخشى على نفسه من بطش كليب . ورحب منجد بن وائل بهجرس وبسط عليه جناحه وكفله بين أبنائه العشرة . ولكى تخفى الجليلة أمر ولدها كتمت أمره عن الناس وقالت له : « اذا سألك أحد عن اسمك ، فقل اسمى الهجرس ولا تقول الجرو . فقال : ان الاسمين واحد ، فما هو مرادك بذلك ؟ فقالت : ان يكون الهجرس كلب الصياد فانه أصــلح من الجرو ابن الكلب . وأنت أمــير وأبوك كان من الفرسان المشاهير . ومن ذلك اليوم تسمى الهجرس وغلب عليه هذا اللقب بين العرب . » فاسم الغلام الأصلى اذن هو الجرو واسم شهرته هو الهجرس أو هجرس وليس العكس .

• •

وكانت الجليلة فى قلق عظيم على هجرس من منجد بن وائل نفسه ، فقد كانت تعرف بحقد منجد القديم على كليب لأن كليبا قتل اخوته أيام انحيازهم للتبع حسان ، فأعربت عن مشاعرها لشيخ عبيدها ، وكان اسمه صبيح (وفى رواية صباح) فنصحها بأن تكتم أمر هجرس عن كل انسان الى أن يفرجها الرحمن . ثم حدث أن غزا بلاد منجد بن وائل بعض ملوك العربان فى ثمانين ألف عنان وانكسر منجد بن وائل فى القتال ، وهنا برز هجرس « وفعل فعالا تبقى وتذكر ما دامت الشمس والقمر » ، ورد بحسامه الغزاة . فكرم منجد فروسيته وسأل عن حسبه ونسبه ، فأنشد هجرس قائلا :

أنا اسمى اليتيم أيا مسمى ... ولا أعرف أبى ولا خوالى
وانى قد سألت أمى مرارا ... فتسكت لا ترد على سؤالى
تقول أبوك شاليس بن مرة ... قتله الزير فى يوم النزال
فأطلب من اله العرش ربى ... لأخذ الثار منه بالقتال

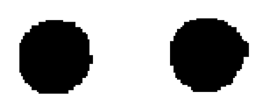
● ●

وهكذا أخفى هجرس شخصيته الحقيقية وزعم انه ولد شاليس بن مرة لا ولد كليب بن ربيعة ، وادعى أن بينه وبين الزير سالم ثأرا لا يمحى الا بالدم . ولا شك أنه ما لجأ الى هذا الا ليطمئن منجد بن وائل . ومن ذلك نستطيع أن نستنتج أن بنى مرة كانوا كمنجد بن وائل وقومه من أنصار التبع حسان وأعداء لبنى ربيعة ، كليب وأخيه الزير سالم . فان كان الأمر كذلك ، فان موقف جليلة المعادى من الزير سالم وانحيازها لأخيها جساس قاتل زوجها كليب منذ البداية يدلان على أنها كانت مثلهم من حزب التبع حسان . أى أنها وقومها بنى مرة كانوا مع محور روم الشام (السلوقيين) واليمن لا مع محور النبط (الحارثة) واليهود (حكمون) وبطالسة مصر (الزير) .

● ●

فعندما سمع منجد هذا كلام هجرس عانقه أمام السادات قائلا : « فعربك من عربى ونسبك من نسبى » . أو باختصار أنه

منجد بن وائل كان من حزب جساس وجليلة كما كان استروفيوس عاهل فوكيس من حزب ايجيست وكليتمنسترا . واستروفيوس هو الملك الذى نفت كليتمنسترا غلامها أوريست صغيرا فى مملكته بعد رحيل زوجها أجاممنون لغزو طروادة حتى يخلو لها الجو مع عشيقها ايجيست فى أرجوس . وفى ملحمة « الزير سالم » أن منجد بن وائل زوج هجرس من بنته « بدر ».



أما ما كان من أمر جساس واخوته ، فانهم لما مضت عنهم أختهم جليلة افتقدوها وأرسل جساس وسلطان شاعرا من الشعراء المداحين الجوابين اسمه « جابر » أو « جبر » ليقتفى أثرها ويعرف فى أى حى من أحياء العرب نزلت ليردوها الى ديارهم واستقصى جبر أو جابر أخبارها ، فلما عرف بمكانها عاد الى جساس وأبلغه . فأرسل جساس أخاه سلطانا لكى يعود بالجليلة وابنها هجرس ، فعاد بهما بعد أن أذن الأمير منجد لهما فى الرجوع . واستقبلهما جساس بحفاوة عظيمة ثم أوحى الى الجرو أو هجرس أن عمه الزير سالم هو الذى قتل أباه كليبا وناشده أن يقتل الزير ليثأر لأبيه :

سألت الله أن تأخذ بثارك   بقتل الزير تكشف عنك عارك

وأما الزير سالم فقد قضى أيامه مؤرقا ينام على الجمر ، فقد أحاطت به الهواتف والأصوات . فرأى فى منامه أخاه القتيل كليبا يناديه قائلا :

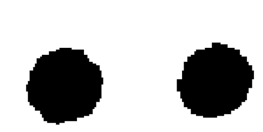
تنام الليـل كله يا مهلهـل ‏ ‏ ‏ ‏ وثأرى ما قـدرت على وفاه
وعظمى ذاب حتى صار كحلا ‏ ‏ ‏ ‏ وجساس بن مرة فى الحيـاه

فأجابه الزير بقوله :

أمير كليب ما قصرت يومـا ‏ ‏ ‏ ‏ بأخذ الثأر من قوم البغـاه
فقم واسأل بناتك يا حبيبى ‏ ‏ ‏ ‏ على طعنى وفعلى فى العـداه

فاستيقظت بنات كليب وأيقظن عمهن بهذا النداء :

يقولون اليتـامى يا مهلهـل ‏ ‏ ‏ ‏ أتانا كليب يستـنجد أخـاه
كليب قام من وسط المقـابر ‏ ‏ ‏ ‏ وصار كليب فى وسط الحياه



وعرف الزير سالم من كل هذه الهواتف والأحلام أن القدر يعد لهم حادثا جللا فجاء بعراف ضرب الرمل وقرأ له هـذه النبوءة : « البشرى لك يا فارس الصدام ، فان جساسا سوف يقتل بعد أيام ، وذلك من يد شخص يظهر من لحمك ودمك » .

• •

وهكذا انتهت الهدنة وخرج الزير سالم ليجدد قتال بنى مرة. ولم يشترك هجرس فى هذه المعركة الى جانب جساس ، فلما استفهم جساس من أخته جليلة عن سبب ذلك أعلمها هجرس أنه لن يخرج الى قتال الزير سالم الا على الجواد « الأخرج »، وهو جواد عمه جساس المغتصب من مركب الزير سالم . فان وهبه جساس الأخرج وهبه رأس الزير . فأعطى جساس هجرس ما أراد وأضاف : « ان قتلت لنا هذا الشيطان تكون علينا ملكا ونحن لك غلمانا وأعوانا » . وكان هجرس أول الأمر يصدق رواية عمه جساس فى الزير سالم . فخرج اليه فى اليوم التالى ، وكانت بينهما وقعة مشهورة :

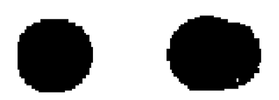
قال هجـــرس يا مهلهـــل ان عـــزرائيل أقبـــل
أين تعـــدى اليـــوم منى ســـوف تلقـــانى وتقتـــل

• •

وحين رأى الزير هجرس تحركت له جوانحه ولم يشأ أن يقتله فى النزال . كل هذا وهجرس يحمل على الزير قاصدا أن

يفتك به . وانجلى النهار عن لاشيء وعاد كل الى خيامه . قال الزير سالم لليمامة بنت كليب :

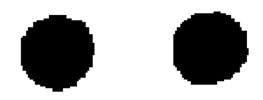
يقول الزير أبو ليلى المهلهل — مريع الخيل ان قصدت الينا
يمامة اســـمعى منى كلامى — أيا ست المـــلاح المحسنينا
برزت اليوم للميـدان حتى — أقـاتل آل مـرة أجمعينـا
فبارزنى غـلام غريب منهـم — له عزم كما الصـخر المتينا
كمثل أباكم وجهـا وحـربا — فذكرنى ليـالى الماضـينا
تقـد قاتلتـه فى كل لطف — وهو يطعن طعـان القاتلينـا
فحملاته وطعنـاته قـوية — تقـد الصخر والزرد المتينـا



وعلم الزير سالم من اليمامة أن أمها كانت حاملا عند مقتل كليب ورحيلها الى ديار اخوتها بنى مرة ، ولكن اليمامة لم تكن تعرف ان كانت أنجبت ذكرا أم أنثى . ولكن كانت لديها علامة محققة تستطيع أن تعرف ان كان هذا الفتى الغريب الذى يتحدث عنه الزير سالم هو أخوها وابن أبيها أم لا . وهذه العلامة هى « التفاحات الثلاث » التى تميز بها كليب فى القتال :

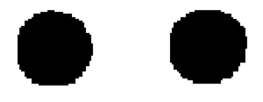
ركب يوما بقرب البيت مهرة — وقال أيايمـــامة انظـــرينا
من التفـاح أعطـانى ثلاثة — وقال بذى الثـلاثة اضربينا

فانك سوف تحتــاجى اليهم — اذا ظهرت لنا حقــا بنــونا
ضربته بواحــدة يا عم راحت — بضرب ركابه صــارت طحينا
وثانى واحدة فى رأس رمحه — وثالثهــم خطفهــا باليمينــا
غــــدا انزل واضربه ثلاثة — كفعل أبى أيا عمى الحنــونا
يكون أخى اذا ســوى نظيره — وان خالف يكون غريب فينا
عسى الله يدركنــا بلطفــــه — وينصــرنا الــه العــالمينا



لقد كانت وسيلة التعرف بالتفاحات والسهام عند اليونان ، كما جاء فى « اوديسا » هوميروس ، هى الوسيلة التى عرفت بها بنيلوب عودة زوجها الغائب اوليس (اوديسيوس) الى قصره بايثاكا فى زى شحاذ . ولعلها نقلت الى ولده الفتى تليماك من بعده بخيال الرواة . وهذا ليس بعيدا كل البعد عما نحن فيه من أحداث . فقد كان اوديسيوس من أبطال اليونان فى غــزو طروادة هو صاحب حيلة حصان طروادة المشهور الذى أمكن به للاغريق من التسلل الى داخلها بعد أن أعياهم حصارها عشر سنوات . وكليب كما رأينا هو صاحب حيلة الخيل حاملة الرماة فى الصناديق التى بها استطاع بنو قيس (عرب الشمال) أن يتسللوا داخل أســوار قلعة التبع حسان اليمــانى وحاضرة

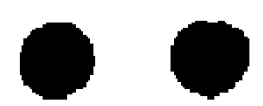
اليمن (عرب الجنـوب) . أما فى الاوريستيا » (حـاملات القرابين) فان وسيلة تعرف اليكترا على أخيها اوريست كانت بخصلات شعره التى رأتها على ضريح والدها القتيل أجاممنون.



وفى اليوم التالى ركبت اليمامة كالامازونة وخرجت مع عمها الزير سالم الى ميدان القتال لتختبر بنفسها هذا الفتى الغريب بتجربة التفاحات الثلاث ، وحين لاح هجرس رمته بواحدة فلكزها بمهمازه فطحنها طحنا ، ورمته بأخرى فتلقاها على سن رمحه ، ورمته بالثالثة فخطفها بيمينه ووضعها بجيبه . فنزلت اليمامة عن ظهر جوادها وألقت بنفسها على هجـرس قائلة : « أهلا وسهلا يا أخى ابن أخى وأبى ، فأنت والله ابن كليب بدون ريب ، وقد ربيت فى ديار العدا » . وهذا شىء قريب جدا مما قالته اليكترا للفتى اوريست العائد من فوكيس الى ديار أبيه عندما التقت به على قبر أجاممنون . ولكن « هجرس » أجاب اليمامة بأنه ابن شاليس وجليلة بنت مرة . وهو قول غريب فى ملحمة « الزير سالم » فمعروف فيها أن شاليس كان أخا لجليلة وجساس وسلطان ، فكيف يعقل أن يظن هجرس أنه ابن جليلة من أخيها ؟ واضح فى هذا الجزء من النص أنه يشتمل على ركام

قديمة جدا من قصة الابن المنتقم لأبيه فى أساطير مصر القديمة ، أى قصة الطفل الالهى حوريس بن ايزيس وأوزيريس ، وهو الطفل الذى خبأته أمه ايزيس بعيدا عن بطش عمه ست قاتل أبيه . وفى هذه الحالة يكون شاليس أو جاويش أو شلش صيغة فونطيقية من ست ، ويكون شاليس هو سلطان نفسه فى لهجة من اللهجات ويكون همام وجساس صورة من صوره . ومعنى هذا أن كليبا والزير وعديا شخصية واحـدة . فاذا صح هذا التأويل عدنا من جديد الى قصة الآلهة الأخوة الأربعة : الاخوان والأختان الذين ولدوا خارج الزمن وهم اوزيريس زوج ايزيس وست زوج نفثيس . وتكون شخصية اوزيريس قد انقسمت فى الانتقال من الأسطورة الى الفولكلور الى أربع شخصيات هى كليب والزير وعدى ودريعان وأختهم أسماء أو ضباع هى نفثيس ، وتكون شخصية ست قد انقسمت أيضا الى أربع شخصيات هى همام وسلطان وشاليس ومعهم أختهم جليلة وهى ايزيس . وقد كان ينبغى أن تكون جليلة مقترنة بمجموعة كليب باعتبار أنها كانت أخته وزوجته فى وقت واحد بمثل ما كانت ايزيس أخت اوزيريس وزوجته فى وقت واحد ، وقد كان ينبغى أن تكون أسماء (ضباع) مقترنة بمجموعة همام ـــ سلطان ـــ جساس ـــ شاليس ، باعتباره أنها أخت همام وزوجته فى وقت واحد . ولكن انتهاء عصر زواج الأخ من الأخت قد أفضى الى هذا التبادل ، بل وأفضى الى جعل المجموعة الاوزيرية والمجموعة الشيطانية أبناء عمومة لا أخوة ، حتى تحل هذه الزيجات وتتفق

مع الحضارات الحديثة . والدليل على قيام هذا التحريف فى الأسطورة الأصلية أن الراوى حين يصف جليلة بنت مرة يغدق عليها صفات الفضل والعفة وسمو النفس ، ومع ذلك لا ينسب اليها طوال الملحمة عملا واحدا فاضلا أو عفيفا أو ساميا ، بل يصورها فى صورة المرأة الضارية الشريرة التى تتآمر على الزير البرىء لتفتك به وتنحاز الى عصبة الأشرار ، جساس وأخوته لأن أعمال نفثيس المحاربة زوجة ست الشرير نسبت بعد هذا التبادل الى شخصية ايزيس الطيبة ربة الخصب والخير . وكذلك نجد أن أسماء أو ضباع المحاربة وهى أصلا من مجموعة ست قد نسب اليها انقاذ جثمان الزير فى تابوته وكل ما قال القدماء أن ايزيس قد فعلته لأخيها وزوجها اوزيريس . وفى بنوة هجرس أو حوريس الابن المنتقم لأبيه يعترف النص ببنوته لجليلة من كليب ، ولكنه ينسبه فى مرحلة من مراحله لجليلة من شاليس .



كل هذا ليس بغريب لأن القدماء كانوا يقرنون هذه الملاحم بين رب الخير ورب الشر بدورة النجوم والأفلاك ، وبالذات بظهور الشعرى أو الشعرى اليمانية Sirius الذى كان صعوده فى الأفق الشرقى نحو الشمس فى الصباح مقترنا بفيضان النيل

والبركات . وفى الشـــعرى « اليمانية » عنصر اشتقاقى من « ممنـــون » فى اســـم « أجاممنون » الذى سبق أن رادفناه بشخصية « كليب » زوج « جليـــلة بنت مرة » التى سبق أن رادفناها بكليتمنسترا قاتلة زوجها بالتعاون مع « ايجسثوس » (جســـاس) ، وفى اسم الجليلة بنت مرة ذكريات اشتقاقية من اسم كليتمنسترا . والشعرى هو الكلب الكبير **Canis Major** والكلب الصغير **Canis Minor** كما كان الرومان يقـــولون ، وهو كانوبوس **Canopus** الذى عودل عند القـــدماء بالشعرى اليمانية أو سهيل اليمانى ـــ سهير اليمانى « سيهور » **Sihor** بالعبرية ، وهو هانوبيتش **Hannobeech** عنـــــد العبـــــرانيين ، والأرجح أن اسم « كليب » عند العرب لا يخرج عن كونه صيغة من كانوب فلا غرابة اذن أن يكون اســـم الابن المنتقم لأبيه هـــو « الجـــرو » أو « الهجـــرس » أى الكلب الصـــغير ابن الكلب الكبير (لاحظ أن اسم حوريس ، وهو الصـــيغة اليـــونانية ، فى مصر القـــديمة كان حرو **Hrw** ثم حـــر **Her** وحور **Hor**)) . ونحن لن نستطيع أن نفهم أســـاطير القدماء على حقيقتها فهما نهائيا الا اذا عرفنا حقيقة هذه الملاحم الكونية التى كانت تدور فى معتقداتهم بين أفلاك السماء ، فقد كانوا يجلسون أربابهم على عروش هذه النجوم والكواكب السيارة . ولكن لدينا من الاشتات عنها ما يكفينا لتتبعها بصفة عامة .

• •

وأيا كان الأمر فقد تحركت جوانح الجرو أو هجرس لأخته اليمامة كما تحركت جوانحها اليه وعرف بنداء الدم أن اليمامة هى أخته ، وانطلق الى أمه الجليلة مهددا بقتلها ان لم تطلعه على هوية أبيه ، (قارن مشهد المخدع حيث ينفرد اوريست بكليتمنسترا وهاملت بجيرترود ويهددها) فروت له حكايته على حقيقتها :

الجليـــلة قالت أبيات مــــلاح

نار قلبى بالحشـــا زادت لظـــا

ان أبوك كليب ســـور المحصنات

قاهـــــر الأبطـال فى يوم الوغى

واخـــوته خمسون أعمامك جميع

كلهم فرســـان طعـانة قنـــا

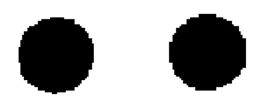
أربعـــة من الست يا ابنى حقيقى

كل واحـــــد ســـبع ربى بالفــلا

منهـــم أبوك كان يســـمى بكليب

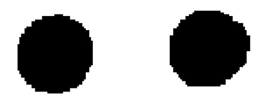
والفـــتى الزير المهلهـــل يا منى

والفتى المدعو عدى ودرعان
هذه الأربعة أتوا منها سوا
ثم ست وأربعون خلافهم
م الجوارى والسرارى والاما ..
جاء جساس خالك باق فيه
وتركنى بعده مثل الأما
وطردنى عمك الزير بعده
فرحت الى أهلى دون الملا
قد كنت حامل فيك بعد أبيك
فولدتك فى تلك الحما
رحت سميتك على اسم الكلاب
صرت مثل السبع رابى بالفلا
وأنا والله من خوف عليك
قلت أخى شاليس انه لك أبا
وأنا أعلمتك فافعل ما تريد
ما بقيت أخاف يا فخر الملا



وهذا النص يدلنا على ارتباط أسطورة أبناء ايجبتوس الخمسين المطاردين لبنات داناووس فى أدب اليونان وثيقة الصلة

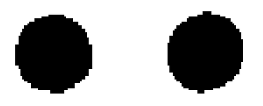
بهذه الأسطورة . وينبغي أن نلاحـظ هنا اصرار النص على ذكريات « الأخوة الأربعة » ، ولكنهم هنا أربعة ذكور وليس الهين والهتين . وما دامت جليلة أم البطل المنتقم لأبيه ـــ فى الأصل صورة من صور ايزيس ، فمن حقنا أن نصدقها حين تقول انها أخفت حقيقة نسبه خوفا عليه ، فايزيس أيضا قد أخفت طفلها حوريس خوفا على حياته من بطش سث اللعين .



وحين سمع هجرس قصته كاملة سالت دموعه وسار فى صحبة أبو شهوان عبد الزير سالم الى قبر أبيه المصفح بالذهب كما سار أوريست فى صحبة بيلاد الى قبر أبيه فى أرجوس ، وكما سار هاملت للقاء شبح أبيه مع هوراشيو فى قصر السينور، ثم انطلق الى ديار الزير وأعلن أنه سيمزق جساسا لينتقم لأبيه. فيتلو عليه الزير سالم الوصايا العشر التى خطها أبوه كليب على « البلاطة » قبل أن تفيض روحه بأن لا يصالح على مقتله مدى الدهر (ليس من الضرورى أن تكون هذه البلاطة من رخام ، فقد تكون ورقة ، لأن الجذر الهندى الأوروبى **blatt** ألمانية **Blatt** وفرنسية **Feuille** وانجليزية **Foliage** معناه « ورقة ») . فقوى عزيمته للفتك بجساس كما كان أبولو

يقوى عزيمة اوريست . وأهاب به أن يجلس على عرش أبيه ، وهو النداء الذى لا يفتأ يتردد فى « الاوريستيا » بأن يعود اوريست شاهرا حسامه ويخلف أباه فى أبهائه :

فقم واجلس على كرسى أبيك وفى أحــوال اخواتك تبصر



وكان لابد لهجرس أن يلجأ الى الحيلة لقتل جساس ، فقصد ديار جساس ، وزعم أمامه أنه أغار على الزير وغنم منه ماشية كثيرة ساقها الى جساس واعدا أنه سيأتيه برأس الزير فى اليوم التالى . واتفق هجرس مع الزير على أن يؤديا تمثيلية تمكنهما من اغتيال جساس ، وهو أن يتظاهرا بالمبارزة ثم يطعن هجرس الزير تحت جنبه فيمزق قربة من الدم يكون الزير قد وضعها لهذا الغرض ، فيحسب جساس أن هجرس مزق الزير . فاذا ما اقترب جساس ليقطع رأس الزير وثب عليه الزير وجندله قتيلا . وقد كان . فعاد هجرس بالغنائم المزعومة الى جساس من ديار الزير ، ففرح جساس فرحا عظيما . (قارن أوريست وهو يدخل بالحيلة قصر ايجيستوس زاعما أنه جاء برسالة من فوكيس تقول ان اوريست مات ليطمئن قلب ايجيست ويتمكن منــه

اوريست) . ولكن جساسا حلم حلما غريبا ، وهو أنه ربى جرو ذئب وكان يحبه ، ونشأ الذئب وترعرع مع سبع فتحابا ، وذات يوم أغار السبع على حظائر بنى مرة ، وهاجم النساء والأولاد وأفنى الكبار والصغار ، وكان الذئب يعاونه على ذلك فلما هجم عليه جساس يريد قتله ، وثب عليه الذئب وأرداه قتيلا ، ثم نهض جساس من حلمه المرعب يرتجف : هـذه الصورة بحذافيرها نجدها فى « أجاممنون » اسخيلوس ولكن فى وصف باريس أمـير طروادة وخاطف هيلانة ثم نجـد مقابلها فى حلم كليتمنسترا فى « حاملات القرابين » بأنها أنجبت ثعبانا ونهنهته وأرضعته كالولدان ، ولكنه عض ثديها فأرداها قتيلة . فلما روى جساس حلمه على قومه هونوا عليه الأمر حتى زال عنه القلق. وفى الصباح خرج جساس ومعه هجرس لقتال الزير وبرز الجرو فى الميدان فبرز اليه الزير ، وتم كل شىء طبقا للخطة الموضوعة ، وتظاهر الزير بالموت ودمه الكاذب يسيل من القربة . وقال هجرس: انزل يا خالى واقطع رأس عدوك فقد قتلته . فلما نزل جساس عن ظهر فرسه « القميرة » وثب عليه الزير وقبض عليه وطعنه الجرو بالرمح فى صدره ونهش لحمه ، ثم قطع الزير رأسـه بسيفه وشرب دمه المتدفق من عنقه ثم سلم رأس جساس الى الجرو ليحملها الى اليمامة وشقيقاتها .

• •

وبعد مقتل جساس استسلم بنو مرة فقبل الزير السلام . وهكذا انقضت هذه الحرب التى دامت أربعين عاما . يقول النص هذه كانت شروط الصلح : « أن يكونوا مثل العبيد لا ينقلون سلاحا ولا يحضرون حربا ولا كفاحا ، ولا يوقدون نارا لا ليلا ولا نهارا ، ولا يعرف قبر ميت فى جوار ، لا فى مقبرة ولا دار ، مشتتين فى البرارى ، يقضون حياتهم بضرب الطبل ، وان غابت نساهم طول النهار لا يسألها فين كانت ، بل يسألها ايش جبت ، وليس لهم صفة سوى الرقص والخلاعة ، فقبلوا بهذا الشرط بكل رضا وقناعة » .

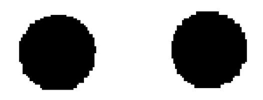
• •

وحكم الجرو أو هجرس ملكا على كل قبائل العرب ، وخلعت بنات كليب الحداد . وكان الجرو قد تزوج ثلاث بنات وولد له ولدان ، الأول سماه « تغلب » والثانى « مالك » ،

وحين كبر الأميران زوجهما ببنتى الأمير هلال حاكم حماه ، وزوج أخته اليمامة من الأمير « مفلح » بن الأمير هلال سيد بنى هلال. وهكذا اتصل نسب بنى ربيعة بنسب بنى هلال وحكم تغلب ومالك مع صهرهما فى حماه . غير أن الأمير تغلب والأمير مالك لم يرزقا بولد من بنتى الأمير هلال ، رغم مرور خمسة عشر عاما على زواجهما . ورأى مالك أن يتزوج كل منهما على زوجته، فقال تغلب : « من الصواب أن نصلى الى الله فى هذه الليلة وتتضرع اليه أن يرزقنا أولادا من نسائنا ، فهو على كل شيء قـدير ، فامتثل أخوه لرأيه وصليا تلك الليلة بحرارة قلب » . فاستجاب الله لدعائهما . وولدت امرأة مالك بنتا سموها « مى » وولدت فى نفس اليوم امرأة تغلب غلاما سموه « الاوس » . وحين عرف الزير سالم والجرو بذلك ، ابتهجا ، وركب الجرو فى وفد كبير من أعيان دولته لزيارة ولديه وأقام فى قصرهما شهرين كاملين . وفى أثناء اقامته مرض ابنه تغلب وتوفى فانقلبت الأفراح أتراحا . وقبل رحيل الجرو عن ديار هلال فى حماه ، أوصاه أن يكون عادلا فى حكمه وأن يزوج ابنته مى من اوس ابن أخيه ، ثم عاد الجرو الى وطنه . واعتنى مالك بتربية الغلام الاوس وعلمه الفروسية وكان بينه وبين ابنة عمه مى حب عميق فكانا كروحين فى جسد واحد . يقصد : « فكانا كروح واحدة فى جسدين » وكانت مى زينة البنات وشاع ذكرها فى قبائل العرب فتوافد الى أبيها الخطاب . وأرسل « الصنديد بن الأكوع » ابن عم الملك حسان تبع اليمن ليخطبها ، « وكان من الملوك العظام ، فاعتذر له

مالك بأن مى مخطوبة لابن عمها الاوس . فلما عاد الوزير بالرفض غضب الصنديد بن الأكوع وخرج متنكرا بمفرده الى ديار مالك .. فلما بلغ قصر الأمير مالك ، لم يجد به أحدا من الرجال، فقد كان مالك فى الصيد والقنص ، فأركز الصنديد رمحه ووقف على الباب ونادى : « هيا يا أصحاب البيت ، فقد أتاكم ضيف من أبعد مكان » .

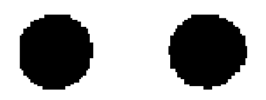
يا أهــل هــذا البيت أين أميركم
وأين مضى من الديار وغـــاب
يا ربة البيت الذى داخـل الحمى
ما بالكـم لا تردوا الجـواب ..
اذا كان أهل الحى غابوا جمعهـم
أما فيكم كريمـة ذات حجـــاب
فتقرى ضــيفا قد أتى من غــربة
وتســـتر أهاليهـا من الغيـاب



والغريب أن هذا هو نفس الكلام الذى قاله اوريست المتنكر العائد من فوكيس الى دياره ، حين وقف يطرق باب القصر الملكى فى أرجوس فى « حاملات القرابين » ، مناديا الملكة كليتمنسترا

أن تستقبله ضيفا غريبا ليستريح من وعثاء السفر . وسمعته مى من وراء حجابها وخشيت أن يلحق العار بقومها اذا قيل انهم لا يقرون الضيف ، فأهابت به أن يدخل الى الصيوان ليأتوه بالطعام « ثم قالت لجاريتها اطلعى افرشى له حتى (وهنا كلمة مفقودة) ويتغدى بينما يأتى أبى من الصيد » . وهذا أيضا عين ما قالته كليتمنسترا لأوريست المتنكر فى زى الرحال وعين ما قالته لخدمها فى « حاملات القرابين » ، أن يبذلوا له خير ما يقدم للضيوف من زاد وأن يقودوه الى جناح الضـــيوف ليستريح من وعثاء السفر . ولكن الصنديد بن الأكوع رفع ستار الخيمة بسنان رمحه فصعقه جمال الأميرة مى التى جاء اسمها منى فى بعض المواضع ، ربما لرواية أخرى وربما لتصحيف النساخ . وانزعجت مى فأهانت الصنديد على اجترائه فغضب وقال :

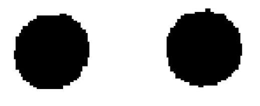
قال الفتى المدعو الأمير فالح　　　لى عند أبيك حاجة ومصالح



ومن هذا البيت نعرف أن الصنديد بن الأكوع كان اسمه الحقيقى « الأمير فالح » وانه زعم أنه جاء قاصدا الملك حاملا رسالة أو قصدا . أما بقية كلامه فهى تدل على غضبه من أن

تنزله الأميرة فى جناح الحريم . ورفض أن يترجل ، فقالت الأميرة مى ملحة :

بحياة رأسك لا ترد ضيافتى اسمع كلامى ثم كون مسامح
فأبى أمير وابن عمى مثله فى جوده يا أمير بحر طافح



فقبل الأمير فالح المكنى بالصنديد الأكوع ضيافتها . فأمرت جاريتها أن تخدمه فى طعامه ، فأبى مستكبرا أن يأكل من يد جارية وهو ابن الملوك الأماثل . فحملت اليه الطعام الأميرة مى نفسها « فعند ذلك قبض عليها وغطاها بعباءته ووضعها على الجواد خلفه » وانطلق بها فأعولت الجارية ونساء الحى . والغريب أن النص فى هذه المرحلة يقول ان اسم هذا البطل مختطف الأميرة مى اسمه غانم « فقالت ما علامك يا غانم ؟ » وركض الأمير فالح أو غانم بالأميرة مى فقطع السهول والبطاح . وفى الطريق أطلعها على قصته وغرامه المرفوض ، وقراره أن يختطفها : « فلما فرغ من كلامه ومى تسمع نظامه بكت بكاء شديدا ، وجعلت تصيح وتستغيث وتطلب منه اطلاق سبيلها لترجع الى الأوطان فلم يسمع لها كلام ، وجعل يلاطفها ويقول : لابد من أخذك الى الأطلال وأتزوجك بالحلال ... لأنى أتيت من بلاد

بعيدة لأجل هذه الغاية الوحيدة ، وقد نلت مرادى وحصلت على مسرة فؤادى » .



فلما وصل الأمــير فالح الى دياره وسألوه عما جــرى له فى غربته زعم أمامهم انه فتك بالأبطال الصناديد فى غزوة مشهودة وأنه جندل الأمير مالك وابن أخيه الأمير الأوس ثم جاء بالعروس فلما سمعته مى يقول هذا الكلام صرخت فى قومه تفضح كذبه وبهتانه ، وفضحته أمام جميع رجال دولته بأنه رجل جبان انتهز فرصة خلو القصر من الرجال وقام بغزوته على النساء « وكذلك خطفتنى بالاحتيال وهربت فى الحال قبل أن يدركك الرجال ويحل بك الوبال » . وعيرته بجبنه قائلة ان أباها مالكا وابن عمها الأوس حين يعلمان بما جرى سوف يمزقانه وقومه تمزيقا . ونلاحظ اهتمام النص بتصوير جبن الصنديد فالح الذى لا تظهر فروسيته الا بين النساء وعندما تخلو الديار من الأبطال ، وهو معنى تبرزه « أجاممنون » أسخيلوس فى اطناب فى تصوير ايجيست . وغضب فارح أو الصنديد بن الأكوع من اشهار مى لكذبه وجبنه فلطمها وجرد عليها سيفه ، كما فعل ايجيست بالكوراس فى خاتمة « أجاممنون » ، فكان هذا معنى

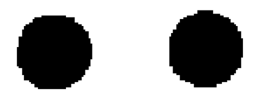
جديدا استغله الراوى لتصوير جبن هذا البطل الزائف . فرده قومه عن مى ، وقد خشوا عواقب فعلته المشينة . وأمر الصنديد فالح سجانه عمران بن الأزور بسجن الأميرة مى فى داره حيث تقيدها زوجته بالاصفاد وتلبسها ثياب الوبر وتجلدها بالسياط خمس مرات . ورق قلب زوجة السجان للأميرة ، ولكن عمران السجان حذرها من مخالفة أمر الملك . وأرادت زوجة عمران أن تهون عليها العذاب ، فألبستها ثوبا من جلد الجاموس تحت ثوبها حتى لا تحس بوقع السياط .



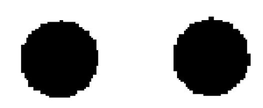
أما الأمير مالك والأمير الأوس فلما علما بما جرى قررا أن يخربا ديار الأمير المغتصب عندما يعرفان من يكون ، وقال الأوس : لن يخربها غيرى ، وركب وحده وسار يقطع الفيافى والقفار وهو لا يدرى لنفسه وجهة ، الى أن وصل الى واد ضيق عميق كثير الأشجار والوحوش والأحجار ، وهناك خرج عليه فارس كامل السلاح يدعى جمرة بن عمرة يتحدث حديث قطاع الطرق: قال جمرة بن عمرة للأوس : « انزل يا جبان عن ظهر الحصان ، واخلع ما عليك من الثياب وفز بنفسك فى هذه الهضاب قبل أن أسقيك كأس العطب ، فأنا جمرة بن عمرة فارس العرب » .

وكان بين الرجلين نزال انتهى بقتل جمرة بن عمرة . وانطلق الأوس بن تغلب فقطع الفيافى والقفار ، وفى طريقه التقى بفارس يقطع البرارى « كالسهم الطيار » وعلم منه انه من بنى عبس وعدنان ، وانه سائر الى ديار بنى عامر ليستدعى حاميهم عنتر من ديار عامر بن الطفيل ، ففى غيبته غزاهم عمـــرو بن معديكرب فأرسله مولاه قيس بن زهير لاستدعاء « عنتر بن شـــداد » (وفى طبعة الجمهورية العربية « عنتر بن شديد ») ولم يكن الأوس قد سمع بعنتر فروى عليه الفارس بعض مآثره فانبهر بما سمع . ثم ودعه واستأنف المســـير حتى التقى بجماعة من العبيـــد ترعى الأغنام ، فأعلمهم بحـــاله وبما يبحث عنه ، فقال له كبير الرعيان ، وكان اسمه مرجان ، أن أميرهم الصنديد قد سبى منذ فترة وجيزة بنتا اسمها مى لا يوجد أجمل منها فى نساء الحى ، وانه أراد أن يتزوج منها فامتنعت فقيدها بقيود من حديد وسامها ألوان العذاب . وهنا عرف الأوس انه اقترب من ضـــالته المنشودة . ورأى الأوس فارسا اسمه سعد ، هو ابن أخت الصنديد فالح ، وعرف من الرعيان بخبره ، فعاد وأبلغ خاله الصنديد بأن فارسا جاء باحثا عن سبيته الأميرة مى . فاستاء الصنديد وأنفذه ليقاتله لأن الصنديد لا يخرج لقتال صـــعلوك من صعاليك العرب . فخرج ســـعد ليقاتل الأوس ، فصرعه الأوس . ولما علم الصـــنديد بمصرع ابن أخته غضب غضبا شديدا وخرج ليقاتل الأوس ، فأثخنه الأوس طعنا ففر هاربا وتبعه الأوس حتى وصل الى الصيوان واحتمى عندالنسوان.

ولم يكن بد للصنديد من أن يرد الى هــذا « الفتى الأمرد » الذى هــزمه وأرعبه خطيبته الأميرة مى فعاد بهــا الأوس الى ديارها . واستقبله مالك وقومه استقبال الفاتحين وزفوه الى ابنة عمه . وحدث الأوس قومه عما سمعه من سيرة عنتر بن شــداد .



وأنجبت مى للأوس غلاما سموه « مالك » . ثم مرض الأمير مالك عم الأوس ومات ، فأرسل الأوس وأعلم جده بذلك ، فقالت له أخته اليمامة : « ارسل يا أخى واحضر ابن ابنك الأوس ليرجع الى أهله ويجتمع بشمله فأجابها لذلك . وفى الحال أرسل رجلا من بنى عمه ليحكم مكانه ، فجاء الأوس مع أهله وسكن عند الجرو جده وراق لهما الزمان وعاشا فى عز وأمان » .



(لاحظ أن قصة اختطاف الأمير فارح للأمــيرة مى فيها عناصر من اختطاف باريس لهيلانة ، وكذلك ينتمى اسم « مى » و «اليمامة » اتيمولوجيا الى اسم « أياممنون » (أجاممنون).



أما المهلهل « المدعو بســـالم الزير » فقد طعن فى السن ووهنت قواه ، ولـكنه واظب على « أكل الطعام وشرب المدام » ، وكان لا ينام الا وهو لابس عدة الحرب . وكانت تحيط به بنات أخيه لتداويه ، فسئم من عزلته وسأل الجرو أن يرســـله مع أتباعه فى رحلة يجوب فيها البلاد ، فأجابه الى ما طلب ، وأرسله مع عبدين يسهران على خدمته . وما زال الزير يجوب الآفاق حتى بلغ « بلاد الصعيد » ، وهناك كان عبداه قد أخذ منهما الانهاك كل مأخذ وسئما التجوال مع الزير العجوز ، فاتفقا على قتله وادعاء أنه مات فى الطريق . وأدرك الزير سالم مرادهما فقال لهما : « قد دنا حمامى وليس الا القبر أمامى . فاذا أدركتنى منيتى أريد منكما أن تبلغا أهلى وصيتى . قالا : وما هى ؟ فعاهدهما على حفظها وتأديتها فحلفا له بأعظم الأقسام بتبليغها بالكمال والتمام . فقال : اذا وصلتم الحى فاقرئا أهلى منى السلام ، وأنشداهم هذا البيت وقولا لهــم انى فى القبر قد اختفيت :

من مبلغ الأقوام أن مهلهــلا   لله دركمـــا ودر أبيكمـــا

● ●

وحفظ العبدان هذا البيت الغريب الذى ليس له معنى . ولما جن الليل ذبحا الزير سالم ودفناه تحت التراب ورجعا الى الديار ، وأبلغا الجرو بموت عمه الزير فبكاه بكاء مرا ، وأنشد العبدان البيت الذى حفظاه عن الزير . فلما سمعت اليمامة هذا الشعر لطمت على خدها وقالت : « ان عمى لا يقول أبياتا ناقصة بل أراد أن يقول :

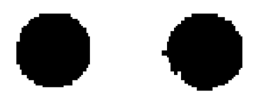
من مبلغ الأقوام أن مهلهـلا أضحى فى الفـلاة مجنـدلا
لله دركمـــا ودر أبيكمـــا لا يبرح العبدان حتى يقتـلا

واعترف العبدان بأنهما قتلا الزير ودفناه فقتلهما الجرو .

● ●

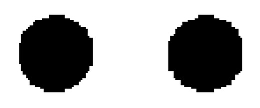
وهكذا انتهت حياة الزير سالم وقد أخذ ثأره فى حيـاته وبعد مماته . وبعد وفاته وضعت امرأة الاوس غلاما فسماه

« عامر » وحين كبر عامر تزوج بامرأة من أشراف العرب فولدت له غلاما فى نفس الليلة التى مات فيها جده الجرو ، فدعاه «هلال»، وهو جد بنى هلال . ولما كبر هلال تزوج وأنجب المنذر . واتفق أن الأمير هلال نزل مكة مع رجاله أيام ظهور النبى وتشرف بمقابلة النبى وقبله بين عينيه وصار من أعوانه ، فأمر النبى أن ينزل الأمير هلال فى وادى العباس . فلما كان النبى يحارب بعض العشائر قاتل معه هلال ورجاله . ورأت فاطمة الزهراء هول المعركة فجنحت بجملها لتبتعد عن حومة القتال ، فشرد بها فى البرارى والفلوات . فدعت على الذى كان السبب بالبلاء والشتات . فقال لها أبوها : « ادعى لهم بالانتصار ، فانهم بنو هلال الأخيار ، وهم لنا من جملة الأحباب والأنصار . فنفذت فيهم دعوتها بالتشتيت والنصر على طول الدهر » .



وهكذا انتهت ملحمة الزير سالم نهاية أشبه شىء بتمهيد لملحمة بنى هلال . والحق أن الجزء الأخير من الملحمة الذى يلى سقوط جساس — وبيت بنى مرة بيد الزير سالم والجرو أو هجرس بن كليب هو الخاتمة الطبيعية للملحمة ، وكل ما جاء بعده من أخبار زواج هجرس وأخبار ابنيه تغلب ومالك وذريتهما

وزواج اليمامة من الأمير مفرح ابن الأمير هلال ، ومولد مى والاوس وحكايتهما مع فالح الصنديد ، أشبه شىء بشجرة الانساب وليس له صلة عضوية بقصة كليب والزير سالم والجليلة بنت مرة وهجرس الابن المنتقم لأبيه ، وانما هو فصل مقحم اقحاما على السيرة الأصلية لربط الملاحم بعضها بالبعض الآخر ، وهو خال من كل قيمة فنية ، وانما أهميته من اشتماله على وقائع وأسماء وصلات قد تعين الباحث العالم على مزيد من الكشوف فى علم الأساطير المقارنة . ولعل أهم ما جاء به متصلا بسيرة الزير سالم قوله ان الزير فى رحلته الأخيرة قصد الى « الصعيد » حيث قتل ودفن ، ولعله قتل ودفن فى ابيدوس أو العرابة المدفونة حيث قتل ودفن اوزيريس فى أساطير الأولين.



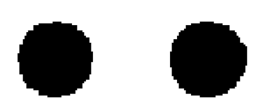
هذه هى ملحمة « الزير سالم » التى تتناول قصتين متشابهتين وتجد لهما جدلا متقنا بحيث لا يحس أحد بأى اقحام أو تلفيق. وهاتان هما قصة الأخ المنتقم لأخيه الممثلة فى قصة انتقام الزير سالم الشهير بالمهلهل لمقتل أخيه كليب ، وقصة الابن المنتقم لأبيه ممثلة فى قصة انتقام الجرو الشهير بهجرس لمقتل أبيه كليب . أما قصة الابن المنتقم لأبيه فقد رأينا كيف أن نمطها

الأسطورى هو قصة الطفل الالهى حوريس (حور) المنتقم لمقتل أبيه القتيل أوزيريس (أوزير) ، ورأينا أنها الخامة التى بنيت بها قصة الفتى اوريست المنتقم لأبيه القتيل أجاممنون عند اليونان وقصة الفتى هاملت المنتقم لأبيه القتيل الملك هاملت . فاذا كان هذا الافتراض صحيحا ، فانه يوفر القرائن على بعض الاشتقاقات فى أسماء الأعلام . فمنه نستطيع أن نستخلص أن شخصية رفيق اوريست وهاملت ، وهو لا يتجاوز أن يكون ذاته الأخرى أو الوجه الآخر من شخصية البطل ، أعنى بيلاد وهوراشيو ، هى فى الواقع اتيمولوجيا مجرد صيغ أخرى من اسم البطل المنتقم لأبيه « حر » أو « حور » أو (هوريس Horus) عند اليونان كاسم البطل نفسه فى المجموعة الهندية الأوروبية . فاوريست Orestes اليونانية وهوراشيو Horatio الاسكندينافية. و « الجرو » و « هجرس » العربية كلها صيغ من « حر » Hor أو « حور » Hor أو « حرو » Heru أو « حوريس » Horus والى نفس هذه المجموعة ينتمى اسم هنجيست Hengest الفتى المنتقم لأبيه فى الملاحم النوردية الذى جاءت سيرته فى حلقة فينسبيرج Finnsburg Episode من ملحمة بيوولف Beowulf الانجلوسكسونية — الاسكندينافية ، (القرن السادس الميلادى) وهو البطل الذى انتهى الباحثون فى تحقيق أصول شخصية « هاملت » الى وجود صلة اشتقاقية وفولكلورية بينه ، أى بين هنجيست ، وهاملت . الى نفس هذه المجموعة الحوريسية (أوريست — هوراشيو) .

● ●

وهذا يوحي بأن اسم « هاملت » أو « همبليت » كما فى الصيغة النوردية واسم « المهلهل » مشتقان من أصل واحـد وهو فى الأرجح اسم هيبوليت Hippolytus، وهو فيما يبـدو من هيبوس Hippos اليونانية بمعنى « حصان » ، والمعنى الكامل اذن هو « مروض الخيـل » أو « سائس الخيـل » . ولا يبعد أن يكون اسم بيلاد Pylades أيضا منتميا الى هذه المجموعة ، مجموعة هيبوليت ـــ هاملت ـــ بيلاد . أما الصلة الاتيمولوجية بين هذه المجموعة واسم المهلهل فلا تزال غامضة من الناحية الفونطيقية ، ولا سيما وأن الاحتمال لا يزال قائما بأن «هيبوس» اليونانية ليست أصلا فى جذر اسم هيبوليت ، وانما تبدو كذلك لبروز معاني « الفروسية » فى أسطورة هيبوليت . وليس ببعيد أن تكون «هى» Hi و «ها» Ha فى هيبوليت وهاملت مجرد ذكريات اتيمولوجية من أداة التعريف السامية الأصلية «ها» (بمعنى « ال ») وأن يكون سقوطها من اسم بيلاد مجرد صيغة طبيعية ، وفى هذه الحالة يجب أن نلتمس جـذر الاسم فى « بيلاد » و « بوليت » لا فى « هيبو » . ولعل هذا من الرواسب الفينيقية العميقة فى الأدب اليونانى ، تلك الرواسب

التى حدثنا عنها فكتور بيرار Victor Berard فى كتابه الخطير « الفينيقيون والأوديســا » Les Phéniciens et l'Odyssée والأرجح اذن أن اسم هذا الابن المنتقم لأبيه ، اسم العلم ، أى حور أو حر أو حرو (حوريس) هو أساس مجموعة اوريست — هوراشــيو — هنجيست — هجرس بينما أن مجمــوعة هيبوليت — بيلاد — همبليت — هاملت وربما المهلهل أيضا ، هى كنيته أو صفته أو اسم شهرته . فتشابه قصــة هيبوليت مع فيدرا وقصة المهلهل مع الجليلة بنت مرة من حيث مطاردتها اياه ورغبتها فى تدمــيره وتشابه شخصية هيبــوليت وشخصية المهلهل من حيث الفروسية والاعتكاف والخلوص للصيد والطراد (لا فى الدون جوانية التى قد تكون خلطا اسطوريا) يوحى بأن هناك صلة من نوع ما بين هاتين الحلقتين .



أما قصة الابن المنتقم لأبيه فهى قصة محورية فى أدب مصر القديمة ، ولكن أدب مصر القديمة فيما نعلم ليس فيه ذكر للأخ المنتقم لأخيه على الأقل فيما يتصل بأسطورة الثالوث المصرى : ايزيس وأوزيريس وحوريس التى نقلت بحذافيرها فى ملحمة

« الزير سالم » ونسبت الى الزير . أما قصة « الأخوين » فى أدب مصر القديمة فهى تدور حول سيرة الزوجة التى عشقت الأخ الأصغر الجميل الصورة وراودته عن نفسه فلما صدها أخذت تكيد له الليل والنهار عند زوجها ، الأخ الأكبر ، ليقضى عليه وتتهمه بأنه حاول اغتصابها ، (قارن قصة يوسف وزليخة) . وقد أخذ اليونان هذه القصة بحذافيرها فى قصة الفتى هيبوليت Hippolytus ابن الملك ثيسيوس Theseus الذى عشقته فيدرا Phaedra زوجة أبيه وراودته عن نفسه ولكنه رفض غرامها لأنه ، كالزير سالم ، كان محبا للصيد والطراد . والضراوة التى تعقبت بها جليلة بنت مرة الزير سالم وكيدها المتصل له عند زوجها كليب وهو أخوه عسى أن يفتك به توحى بأن قصة الزير سالم بين أخيه كليب وزوجة أخيه جليلة كانت فى الأصل صياغة « لقصة الأخوين » المصرية القديمة . فاذا كان الأمر كذلك فان تجاوز موضوع الأخ المنتقم لأخيه ، والابن المنتقم لأبيه ، فى ملحمة « الزير سالم » يمكن تفسيره بأن هذه الملحمة وعاء أدبى حاول فيه مؤلفوه — حتى قبل العصر المسيحى — أن ينسقوا بين قصة الأخوين وقصة الثالوث المصرى القديم ، قصة ايزيس وأوزيريس وحوريس . وليس يبعد انه كانت بينهما صلة من نوع ما حتى فى أساطير مصر القديمة .

وبناء على كل هذه المعادلات القديمة ينبغى أن يكون الاخوة كليب والزير سالم وعدى ودرعان فى الأصل تجسيدا فولكلوريا لشخص واحد هو الزير أو اوزيريس ، الاله الشاب الجميل المحيا الذى اشتهر فى العالم القديم بأنه رمز للحب والحرب (الاخصاب بصفة خاصة) ، وهو اله الخير والطمى المبارك أيام فيضان النيل ، وهو الاله الممزق الذى يغتاله أخوه الشرير ست رب القحل والجدب . وهذا هو أجاممنون الغازى وزير النساء عند اليونان وأخوه منيلاوس وهو الشق الآخر منه . وبهذا يكون الاخوة جساس وسلطان وشاليس وهمام تجسيدا فولكلوريا لشخص واحد هو ست ، الاله الكبير الشرير والذى كان يغار من جمال أخيه الصغير اوزيريس ويحقد عليه حبه للخير وحب الناس له ، وقد دفعه حقده وغيرته الى قتله واحتوائه فى التابوت، وفى مرحلة أخرى ، بعد بعث اوزيريس ، الى تمزيقه . وهذا هو ايجستوس الذى فتك بأجاممنون حقدا على بطولته واعتقادا منه بأنه اتنزع منه ما كان ينبغى أن يكون له من سلطان . وبهذا تكون جليلة زوجة البطل الممزق كليب ـــ الزير لأنها أم البطل هجرس وهو الابن المنتقم لأبيه ، ولكن حرص المؤلف أو المؤلفين

على ادماج قصة الأخوين فى قصة اوزيريس جعله لا يكتفى بأن يجعل من كليب والزير شخصين مختلفين ، ولكن يجعل هجرس أو الجرو ابن كليب لا ابن الزير كما هو فى الأسطورة المصرية القديمة التى لو اتبعها الراوى أو الرواة فى بساطتها الأولى لجعل من جليلة زوجة للزير ، وجعل هجرس ولدا للزير ينتقم لمقتل أبيه الزير ، ولدا تحمل به جليلة بعد مصرع الزير فى مأدبة الخمر ورحلة فينيقيا (ببلوس — بيروت) كما فى الأسطورة القديمة . ولولا هذا الادماج بين القصتين لما وجد الراوى نفسه حائرا بين شخصيتين لجليلة ، شخصية الملكة الضارية قاتلة الزوج من طراز كليتمنسترا تنجب الابن المنتقم لأبيه ، وهو ما اضطر الراوى الى نسبة كل أعمال جليلة الايزيسية الى أسماء أو ضباع، وشخصية المرأة الفاضلة التى يصر النص على فضلها ولكننا لا نرى من فضلها شيئا الى جليلة بنت مرة . وفى هذهالمقابلات نجد أن اليكترا أخت أوريست هى اليمامة أخت هجرس ، واليمامة أكبر سنا من هجرس كما أن اليكترا أكبر سنا من اوريست ، وهى التى تستحث الزير سالم وقد كان ينبغى أن تستحث أخاها هجرس وحده ، للأخذ بثأر أبيه ، (نحن لا نعرف بأن ايزيس كانت لها بنت ولكن ربما كانت حتحور أو هاتور بنتها) ، وعلى كل فمن غرائب التحولات الفولكلورية أن نجد ايزيس بنتا لأوزيريس فى اجتهادات القرون الأولى للمسيحية فى المدونات اليونانية . ومن المهم أن نذكر أن تبادل المواقف والأعمال والخلال بين جليلة — كليتمنسترا وأسماء — ايزيس طمس

بعض الموتيفات ذات المدلول الخاص . فهناك مثلا موتيفة قتل الزير لشيبون ثم تشيبان ولدى أخته أسماء أو ضباع فى سبيل الثأر ، يذكرنا بالقرابين البشرية وبما فعله أجاممنون بايفيجينيا بنت كليتمنسترا . ثم ان ما يرويه النص من أن الزير حين قطع رأس جساس شرب من دمه يذكرنا بما نسبه القدماء الى أوزيريس من أكل لحم البشر ، أو أكل اللحم نيئا على كل حال .



ان استخدام الراوى أو الرواة لموتيفة تسلل كليب ـــ الزير الى داخل أسوار الملك حسان اليمانى بحيلة الخيل أو الجمال مخفيه المقاتلين فى الصناديق الخشبية ، يدل على أنه أو أنهم كانوا على علم « بالياذة » هوميروس (١٠٠٠ ـــ ٨٠٠ ق.م.) ، فهذا عين ما فعله أوليس وأجاممنون بأسوار طروادة . وهناك مواقف عديدة وموتيفات عديدة وأوصاف عديدة ، بل وأقوال عديدة توحى بأن الراوى أو الرواة كانوا على علم بأدب اليونان فى العصر الكلاسيكى ، بل و « بالاوريستيا » بصفة خاصة . ولذا فانى أميل الى الظن بأن النـواة الأولى لهذه الملحمـة كانت صياغة مصرية قديمة موغلة فى القدم لقصة ايزيس واوزيريس وحوريس المنتقم لأبيه وأن المصريين استخـدموا ما فيها من

صراعات بين آلهة الخير والخصب وآلهة الشر والقحل ليصوروا صراعاتهم مع غزاتهم الهكسوس ثم اقتبست هذه الملحمة من لغة أو لغات من لغات المنطقة السابقة للغة العربية أو لنضوج اللغة العربية على أقل تقدير : قد تكون فينيقية أو بابلية أو أشورية أو عبرية أو آرامية مع اسباغ اللون المحلى على أشخاصها وأحداثها لتناسب الزمان والمكان ثم أعيدت صياغتها فى أيام ثورة المكابيين من بيت حكمون اليهودى المعاصر للنبط فى عصر الحارثة ابان تلك الفترة الخطيرة التى حاول فيها اليونان تهلين الشرق القريب أيام السلوقيين أو بين الاسكندر الأكبر (٣٣٣ ق.م.) ونهاية مدرسة الاسكندرية (القرن الثالث الميلادى) بكل ما ملك السلوقيون والبطالسة والهللنستيون عامة من أدوات السلم والحرب ، وفى هذه الصياغة الجديدة جددت الصياغة وأضيفت اليها موتيفات جديدة بحيث تتناول أحداث تلك الفترة وما جرى فيها بين مصر والنبط والعرب ومملكة سبأ (اليمن) واليهود والروم السلوقيين من أحداث جسام . وليس يبعد أن تكون هذه الصياغة الجديدة قد كتبت باليونانية ثم ترجمت الى السريانية أو الى الآرامية أو الى العربية أو الى القبطية . أما أحدث طبقة من طبقات هذه الملحمة ، فهى ليست الطبقة التى تتناول أحداث الجاهلية القريبة (فالنص يحدد نهاية أحداث الملحمة بظهور النبى المختار) وانما هى الاضافات التى أضافها الراوى أو الرواة المحدثون ليجددوا بها الملحمة بحيث تبدو معاصرة للحروب الصليبية ثم للفتح العثمانى للعالم

الاسلامى . أما الدليل الداخلى (اللغة والعروض) فيثبت أن نص الملحمة المتداول حاليا فى طبعات الصنادقية من صـياغة (تأليف أو اقتباس أو ترجمة) راو أو رواة مصريين ، فالأوزان لا يمكن ضبطها الا اذا تليت الأشعار باللهجة المصرية من اللغة العربية ، ومفردات الملحمة وتراكيبها كلها من صميم عمود هذه اللهجة . أما الأسطورة الأساسية أسطورة اله الخصب الممزق وظهور الابن المنتقم لأبيه ، فقد عبرت البحر المتوسط شمالا ، مباشرة وعن طريق الفينيقيين ، فى تاريخ باكر جدا ، لعله زمن حضارة مينوس Minos ، وميكيناى Mycenae ، فى الألف الثالثة قبل الميلاد . فاذا كان المصريون قد استخدموا هذه الأسطورة الأساسية للتعبير بصراعاتها عن صراعاتهم مع الهكسوس وغيرهم من جيرانهم : قارن أوزيريس محاربا فى كتاب بدج Budge « اوزيريس والبعث المصرى » Osiris and the Egyptian Resurrecion تكون الملحمة أو مضمونها فى شكل قريب من شكلها الحالى ، مع حلقة أبناء ايجبتوس الخمسين وبنات داناووس الخمسين ، موضوع « الضارعات » Supplices ، قد انتقلت الى الاغريق فى الألف الثانية قبل الميلاد ، فى فترة ما بين ظهور أحمس واخناتون أو قبل الملاحم الهومرية على أكثر تقدير ، أى قبل ١٠٠٠ ق.م.

• •

وعلى كل فان عملية التراكم الملحمى التى جرت على الملحمة المصرية حتى وصلت الى صورتها الحالية عرفت فيما يبدو طبقة أضيفت بعد مأساة اخناتون ، لأن شخصية عدى أو عدية توحى بأن عبادة اتون (عدن) جعلت من اتون أخا لاوزيريس كما كان عدى أخا للزير ، فهو مثله اله يبعث وهو مثله ملك الموتى الذى يحكم تحت التربة الظلماء ، وهو مثله صاحب جنة أو جنينة أو بستان الخ .. وبذلك يبدو أن أخوة الزير كانوا يزدادون عددا بمر العصور فيضاف اليه نظائره فى العالم القديم من آلهة الخصب. فبعد أن كان الزير وحده أضيف اليه كليب ، ثم أضيف اليه دريعان أو درعان ، وهو شخصية تحتاج الى مزيد من البحث والتنقيب، ولكنهم فى الأغلب جميعا آلهة من آلهة الخصب الممزقين . ويبدو أيضا أن ما حدث من تراكم على شخصية الزير ، حدث أيضا بالنسبة لشخصية غريمه جساس بن مرة ، فازداد عدد اخـوته كلما انتقلت قصته من مناخ أو من حضارة الى حضارة ، وربما كان اسم الغريم الأصلى « سلطان » (ست) وكان اسم جساس من الأسماء المضافة .

• •

فاذا كانت قراءتنا فى ملحمة « الزير سالم » قراءة صادقة ، وكانت هناك علاقة عضوية بينها وبين « الاوريسيتيا » ، لا مجرد أسطورة اوريست ، ولكن « الاوريستيا » فى صورتها المكتوبة ، فمن الواجب أن نلتفت الى عناصر الملحمة التى لا نجد لها مقابلا فى أدب اليونان بقدر التفاتنا الى تلك العناصر التى نجد لها فيه مقابلا . فلقد تهدينا دراسة هـذه العناصر الغامضة المنشأ الى الكشف عن بعض ما ضاع من ملاحم ومسرحيات من أدب اليونان القديمة ، وهو حقا أكثر من الكثير .

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

الثمن ٢٥ قرش

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
فرع مصر – ١٩٦٨